فاكهة محرّمة

فاكهة محرّمة

رواية

د. جمال الجزيري

اسم الكتاب: فاكهة محرّمة
اسم الكاتب: د. جمال الجزيري
تدقيق لغوي: د. جمال الجزيري
تصميم الغلاف: محمد إبراهيم
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2019 / 28868

المكتبة العربية للنشر والتوزيع
Arabic Library

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الراوي

أكواخٌ تُعربدُ فيها النيرانُ. ربما كان الصَّهْدُ ذاته نارًا حارقة، فها هو يجعل الصورة كما لو كانت تحترق، كما لو كانت ملامحها تتصاعد كوهج أو صهد أو خيوط ملتهبة تشي باحتراق داخلي وخارجي. هل هي صورةٌ أم حقيقةٌ؟ هل هي رهبةٌ أم روعة؟ لا أعرف كيف أصفُ المشهدَ، ولا كيف أنقل ما أراه أمامي يحدث في المنظار، أو بالأحرى لا يحدث. هل السكون أيضًا حدثٌ؟ هل اللاحدث حدثٌ؟ هل الحدث لا شيء؟ هل الحدث رعبٌ مندلعٌ من داخلي أم من داخل ما أراه؟ وما الذي يجمعنا سويًّا؟

أنا أيضا جالسٌ أمام كوخ، ربما في مدخل قرية، وربما أنظرُ إليَّ من شقَّتي – أو بالأحرى شقَّة مُؤَلِّفي – من منظار مكبِّرٍ، لأراني جالسًا على الأرض، أفترش فَرَّاشِيَّةً، وهناك مَسْنَدٌ صغيرٌ أتَّكئُ عليه. يبدو من جلستي وجلبابي وتقويس رجلٍ لي لأتكئ عليها أو لأضع عليها ذراعي وأنظرُ إلى شيء ما – يبدو من ذلك أنني أجلس مع شخص ما وأتكلم معه، وربما أقيّم أحوال الأكواخ. لكن ذلك الشخص لا يظهر في منظاري، فيظلّ المنظر أمام الرائي منظرَ فلّاحٍ ربما يتكئ على حائط... الصورة لا تستقيم كثيرًا، حفاظًا على حائط يتكئ عليه وأنَّ هناك مسندًا بجانبه يتكئ عليه أيضًا وأنه يقوّس رجله ليسند ذراعه عليها. ها أنا أتكلم عنه بصيغة الغائب، فبصراحة لا أستطيع أن أتخيَّل – بصريًّا – منظري وأنا جالس هكذا، كما أنني في الصورة أرتدي جلبابا بلديًّا بكُمٍّ واسع جدًّا، ولا أظن أنني أرتديتُ مثل هذا الجلباب البلدي طوال حياتي، وأنا لا أرتدي الجلابيب البلدية أصلا..

ماذا يفعل ذلك الذي يشبهني هناك؟ مبدئيا سأتخيَّل أننا شخصيتان: شخص واقف فوق سطح شقته الحديثة التي توجد أعلى العمارة التي يسكن فيها. وربما هو نفسه الذي يرقد على السرير الآن في بلد آخر ويغمض عينيه ويراهما معا: يراني في شقَّته ويراني في الأسفل هناك أمام القرية أو في مدخل القرية. وربما في حارَة أو رَهَبَة داخلية. وشخص هناك، أمام المنظار، أحتارُ في وصفه، أو في وصف ما أراه وما يجعل ذلك الشخص يجلس هناك في ذلك الصهد الحارق. فما الذي يجعله ينتظر في ذلك الجو؟ وهل ينتظر فعلا أم أنه يتدبَّرُ شيئًا ما أو يتأمَّلُ حالتَه أو يفعل أي شيء لا أدركُ طبيعتَه؟

المَدْخَلُ يَفْتَرِضُ البراحَ والامتدادَ. لكنه هنا أو هناك يتكئ على حائط كما قلتُ، فلا أعرف ما إذا كان ما أمام المنظار هنا أم هناك بالنسبة لي. أمامه بيوت طينية، ومن الواضح أنها كلها متلاصقة. على يساره الذي يتكئ عليه، توجد جدران كثيرة، جدران طينية لبيوت كلها تقريبا ترتفع عن الأرض حوالي مترين أو ثلاثة لا أكثر، وفي الغالب مترين ونصف. على اليمين نحو الجهة التي يتكئ عليها أيضا: هل يتكئ على رجله المقوسة أم ماذا؟ توجد بيوت متلاصقة ويبدو أنها هي الامتداد الأساسي للقرية. بالنسبة لظهره، لا يوجد امتداد. فقط ربما شارع قصير، وربما أنا أطلُّ من زاوية عُليا، فأرى وراءه ذلك الشارع. لكن لا يوجد براح ولا امتداد ولا انفساح نحو فضاء أو خلاء أو نحو ذلك.

ربما كان هو ذاته محصورًا وسط هذه البيوت الطينية المتلاصقة التي لا تترك مجالا لشارع! هل هي صورة ساكنة أصلا؟ صورة ثابتة؟ صورة مُحَنَّطة؟ صورة عبارة عن لقطة واحدة تتكرر باستمرار، أو كأن هناك آلة عَرض جهنمية تعيد تكرار الصورة دون أن تنتقل للّقْطَة التالية؟ لماذا أحسُّ بأن هذه الصورة بابٌ؟

وكيف لصورة أن تكون بابًا؟ علامَ تنفتح؟ علامَ تطلّ؟ ما الذي يمكنها أن توصلني إليه؟ ولماذا أنا منشغل بها هكذا؟ هو منظار، ومن المفترض أن أرى ما يكشفه لي وأتأمله فقط، أتأمله في حد ذاته، دون أن أبرحه، دون أن أفرض عليه شيئا، دون أن ألتقي بنفسي هكذا فيه، هل أنا أتخيَّلُ شيئًا؟ أم أنني أريد أن أتخيَّل قصة هذه الصورة؟ ولماذا تبدو ظلال الصورة كما لو كانت طوفانًا أو ما بعد طوفان ما، دون أن ينجو أحد، دون أن تظهر معالم بداية جديدة في الأفق؟

لا تظهر حركة واحدة وسط هذه القرية. البيوت تقريبًا متساوية في الطول، في الارتفاع، وكلها مسقوفة بالطين أيضا. لا يظهر أحد أو طائر أو حيوان أو أي شيء من هذا القبيل. أنا أو ذاك الرجل، لمَ نقول إننا نراه على أنه شارع؟ وربما كان مجرد براح وسط البيوت التي تحاصر هذا البراح من كل اتجاه. ظَهرُه لهذا الشارع أو البراح. وجه البيوت. يبدو أنه يتكلم مع أحد ما. لا يبدو أحد أمامه. لا توجد حركة إطلاقا. استناده على حائط واستناده بذراعه على رجله، لماذا أراه هكذا كأنه لعبة خشبية أو كرسي هزَّاز؟ مثبَّتٌ هكذا؟ هل يجلس هو على كرسيٍّ هزَّاز؟ أم أنه هو ذاته كرسي هزاز؟ هزاز بمعنى لديه قابلية للاهتزاز، كرسي، أرجوحة، يتراجع للوراء وللأمام، لكنه لا يتحرك أو لا يهتز الآن. يتراجع للوراء وللأمام!! غريب هذا التراجع! من الواضح أنه دوران في المكان، فكل خطوة يخطوها للأمام يرجعها بعد ذلك للوراء، ويُرجعُ رأسي معه، يُرجع مخاوفي معه، يُرجع قلقي ويجعله نابتًا في أُفُقِ المنظار، كأنني الرجوع ذاته، وكأنَّ مخاوفَ مُؤَلِّفي حقيقةٌ باديةٌ أمام عينيّ وأمام عدسة المنظار وأمام عيني ذلك الرجل وأمام العيون التي تظهر من الجدران، ولا أعرف لماذا لا تبدو هكذا أمام عيون مَن أحسُّ بأنهم ينظرون إلينا جميعا في لقطة

بانورامية تُقَشْعِرُ جسدي، وكأنَّنا في مَهَبِّ القنص، في مَهَبِّ الفُرْجَة، في مهبِّ الألعاب اللاهية!!!

هل هو في انتظارِ أحدٍ؟ هل يُوهِمُ نفسه بأنه يحاورُ أحدًا؟ يدردش مع أحد؟ يخطط لأشياء مع أحدٍ؟ يفكّر فيما سيفعلانه سويًّا؟ فيما سيُخرجهما من هذا المأزق؟ من هذا الصهد؟ من هذا الجحيم؟ لماذا أحسُّ بأنَّ تطلُّعاتِه أكبرُ من الأفق أمامه؟ لماذا أحسُّ بأن عينيه ترصداني وترصدان نظرة ذلك اللاقط البانورامي؟ لماذا أضع يدي على قلبي الآن وأتوجَّسُ من مخاوف عليّ وعليه وعلى المنظر كله؟

وكأنني أرى كوب شاي في يد ذراعه التي يسندها على رجله المقوسة. هل يتعشَّم أو يتمنى أو يحلم بأن يشرب الشاي في قرية طينية؟ ظهره الذي يوليه لي يوحي بأنه يريد أن يتكلم مع أشخاص آخرين، بعيدًا عن مناجاة الذات أو التأمل أو المقارنة بين لحظات زمنية حالية وماضية. هو يريد أن يتكلم مع شخص آخر. لكن هل هناك شخص آخر؟ أقرِّبُ الزاوية لأُحَدِّدَ موضعَ نظري. لا أرى أحدًا أو شيئًا. وكما يبدو، لا توجد هناك حتى نسمة هواء. بجلبابه، بكمه الواسع، لا يتحرك، ساكن تمامًا.

لا، لا. هناك تغيُّرٌ ما. مخيفٌ، وها أنا جسمي يقشعرُّ، أنا الذي أرصد المشهد من بعيد جسمي يقشعرُّ، فما بالك به هو الذي يوجد في وسط المشهد، في قلب المعركة، في جحيم الاكتشافات؟! لا بدَّ أن يكون أي إدراك يتوصّل إليه اكتشافًا جحيميًّا، اكتشافًا ناريًّا، انفتاحًا على الاحتمالات المتوعّدة!!

من أعلى السور الطيني الذي على يمينه، تبرز عيون كأنها من فتحة في أعلى هذا السور، وربما كأنها نوع من الخزف المتحرك أو الدوَّار المثبَّت أعلى هذا الجدار. عيون لا أعرف لماذا أحسُّ بأنها عيون بُرْصٍ، ولا أذكر عيون البرص لأنني لم تتح لي

الفرصة لأن أواجهه مباشرة. فالشِّبْشِبُ يكون في يدي على الدوام عند رؤيته لأُدْخِلَه في الجحيم الذي يُريدُ أن يُدخِلَ فيه زوجتي وأولادي. أما أنا فقرويٌّ. كنتُ معتادًا على رؤية كل أنواع الحشرات والتعامل معها. لا أدع له فرصة لأن ينظر إليّ. ربما كانت عيون برص أو سحلية أو.. ماذا؟ تمساح؟ لا أذكر عيون التمساح... عيون ماذا؟ عيون ثعبان؟ لا أذكر أيضا عيون الثعبان. لكنها تذكّرني بشيء من هذا القبيل.. تمساح. ربما تشابه فقط. في الوظيفة على الأقل. مبدئيًّا. لا يوجد تمساح في الجزء العلوي تحت السقف من سورٍ في بيت طيني لا تظهر فيه أي ملامح حياة. حتى نسمة الهواء مختفية. ولا بد أن الماء مختفٍ كذلك. بالرغم من كوب الشاي الذي كنتُ قد تخيَّلتُه أو تخيَّلَه ذلك الجالسُ في يده ويشرب منه. السحلية احتمال وارد. البُرص احتمال وارد. الثعبان احتمال وارد. احتمالات كثيرة. وكلها تنفتح على التربُّص. على التصيُّد. على مفارقة الحياة. أو على الأقل على أن تجعل ما ومَن ترصده يفارق الحياة. أو يعيش على هامشها. أو يعيش وكأنه ميّتٌ. كأنه يعيش ولا يعيش. يموت ولا يموت. ولا يستطيع أن يحسَّ بأنفاس الأرض. ولا أنفاس الماء. ولا أنفاسه هو أو هي شخصيًّا...

لكنَّها عيونٌ فيها بريقٌ ولمعانٌ وخبثٌ. وتنفتح على احتمالاتٍ كثيرةٍ. بالإضافة إلى احتمالات إزهاق الحياة. هل تسخر من ذلك الرجل؟ هل تخطط له شيئًا؟ هل هي كل ما ومَن تبقّى من سكَّان تلك البيوت؟ هل هي مجرَّد واجهةٍ لما يقع داخل تلك البيوت الطينية التي لا يظهر ما ومَنْ بها؟ لستُ أدري. وها هو إيليا أبو ماضي يطلُّ عليَّ وعلى منظاري وعلى ذلك الرجل وعلى تلك العيون. ويوقعنا في الحيرة. في التساؤل. في الاحتمالات المتناقضة والمتكاملة. احتمالاتٌ تُوقِفُنَا على عتبة الحياة. وتقول بأننا نعيش ولا نعيش. نحسُّ ولا نحسُّ. نتطلَّعُ وهناك من يترصَّدُ تطلُّعَنا.

يترصّد أنفاسَنا، يترصَّد وجودَنا ذاته، كأن الحياة صيادون وطرائد، صيَّادون وطرائد يظنون أنهم صيَّادون، ومَن يصطادُ مَن؟ من يلعب بزاوية المنظار، بزاوية العدسة، بزاوية الشاشة، ليُحِيلَ كلَّ شيءٍ إلى شيءٍ آخر، إلى آفاق أخرى، إلى تأويلات ربما كانت تتناقض مع التأويلات البادية؟

لا يمكنني أن أحدِّدَ شيئًا، ولا أستطيع أن أستوعب الصورة كاملة. النظر في حدِّ ذاته مشكلةٌ عويصةٌ لا يمكن الاستقرار على زاوية له، ففي كل لحظة العين في شأن، في تحوُّل، في انسياب، وكأنها تنزلق بسهولة من الشيء إلى نقيضه، من الشيء إلى شيء آخر ليس بالضرورة نقيضا للشيء الأول، وكأن هذه العين هي اللاوعي ذاته الذي يُخرجُ في كل نظرة زاويةً مجهولةً من هذا السَّدِيمِ الذي يوجد في مخزون الذاكرة المجهول، مع أن كل هذا السديم يتعايش مع بعضه البعض، حتى وإن كان لا يعرف بوجود بعضه البعض، لكنه موجود في المكان نفسه، في الذاكرة نفسها، في ذلك المحيط اللانهائي الذي لا تستطيع نظرة واحدة أن تحيط به عِلمًا أو خَبرًا أو إحساسًا أو إدراكًا!!

هل فرغَ من شُرْبِ الشَّاي؟ هل تنبَّه للعيون؟ هل أبصَرَ أحدًا قادمًا نحوَه من اتجاه لا يظهر لي؟ هل تغيَّر إحساسُه بالوقت، بنفسه، بالمكان، بالزمان، بالعيون؟ هل نظر في هذه العيون مباشرة؟ هل أَحَسَّ بالخوف؟ هل أَحَسَّ بالتَّحَدِّي؟ هل أحسَّ بهول ما ينتظره، بهول ما ينبغي عليه القيام به، بهول الأفق أمامه؟

ها هو ينتظره، وكأن هذا المشهد العبثي أو المتلاطم ما هو إلا عبثي أو متلاطم في نظري أنا كراصد فقط! أما في عينه هو – الجالس هناك – مجرد مشهد انتظار وترقُّب وحميمية وتواصل!! لكنني أحسُّ بغليانٍ داخله، بثورةٍ ما، بصراعٍ ما، برؤيةٍ فوّارةٍ تكاد تعصف بـ... هل تعصف به أم تعصف بي أم تعصف بما ومَن يترصّده،

بما ومَن يترصّدُنا، بكل تلك الاحتمالات السوداوية الرهيبة التي تبثُّ الرَّهْبَةَ والرُّعْبَ والتَّحَدِّي والمناوَشَةَ في آن؟

كيف أختم هذه الرواية المعقدة أو هذه الملاحظة؟ هل سأجد في عدسة المنظار عينا مثل تلك العين التي كانت مثبَّتة أو كانت تبرز من الحائط الطيني؟ هل سأكتشف أنني رسَّامٌ وأنني أرسمُ لوحةً وأقفُ أمامها لأتخيَّل انطباعك عنها؟ هل سأُدْخِلُ راويا مشاركا وأنكِّل به بأن أجعله يذهب إلى هناك ويُقِيم حوارًا مع الجالس ويعطيني ظهره؟ هل سيكتشف أنَّ تلك القريةَ مستقبَلِي وأنه يعطيني ظَهْرَه الآن لأنه سَبَقَنِي بخطواتٍ؟ هل سيكتشف أن الجالس هناك صديقٌ راحلٌ لي، يعطيني ظهره لأنني لم أزره في مقبرته حتى الآن؟ هل سيكتشف أن تلك الأرض التي تنبعث منها النيران والصهد والأنفاس المحروقة هي أرضي أنا، هي الأرض التي تنتمي إليها هذه الشقة لمؤلِّفي؟ هل يظهر مؤلِّفي في المشهد أم أن هذه الرؤية وهذا المنظار ينتميان لزاوية من عينيه هو شخصيًّا، أو على الأقل أو بالأحرى يشترك مع عيون كثيرة في رَصْدِها؟

كيف أختمها أو أنهيها والاحتمالات متسعة وواردة؟ شهيَّةٌ ومُرَّةٌ؟ كيف؟ حتى عندما أحاول أن أُبْعِدَ المنظارَ عن عيني لا أستطيع، وكأنه يتشبَّثُ بنظري وأنه مجرد نظارة، أو ربما هو عيني ذاتها: راوٍ وقع في ورطة، دخل عالما ليُخرجَ منه شيئًا، ليَخْرُجَ منه بشيءٍ، ولم يستطع الخروج منه، وها أنا عالق في زاوية النظر، مَنْ يُخَلِّصُنِي؟ لستُ أدري، ربما فقط قارئ قد يوقف القراءة، كما سأوقف أنا الكلام هنا دون أن يبتعد المنظارُ عن عيني...

لا بد أن أتوقف هنا، فلجسمي عليّ حقٌّ، ولا بد أن أنزل للتسوق الآن، كي أستطيع الرجوع قبل أن يأتي العمّال الذين يكملون تشطيب الشقَّة وسطحها، كما

أنني مشتاق لأن أرى الشوارع، فمنذ قدومي من المطار بصحبة ذلك الظل وأنا لم أنزل إلى الشوارع. فقط بعد مجيئي مباشرة اشتريتُ بعض الحاجيات من المحلات في هذه المدينة الجديدة، وكانت صدمتي بالغة، أستودعكم الله يا أصدقائي، وللرصد بقية، للكلام بقية، لزوايا المنظار اتساع...

الهواء المحروق

لا أعرفُ ماذا أفعل مع جمال الجزيري: تخيَّل صورتي، أو أنه جمَّعها من ذاكرته ومن بعض الروايات التي قرأها ومن بعض أصداء قصصه ورواياته، وأرسلَ صداه وراويًا أو قارئًا، من قصة الأصوات التي ابتدعها، إلى مصر هنا لكي ينظرا بالتناوب من منظار.. ويتخيلا رؤيتي!!! يتخيلان أنني أعطيهما ظهري، وأنا الذي كنتُ في الشتات ما بين الروايات والقصص والذكريات والتخيلات والقصائد الانفعالية في لحظة العاطفة الجيَّاشة. هل جيَّاشة أم هادرة من أصداء الميادين؟ تباتُ دمًا تصبحُ راويًا على يد جمال الجزيري!! المَثَلُ الأصلي مريح يا عم جمال: تبات نارًا تصبح رمادًا. الرماد هواء محروق، الرماد سكون، الرماد ضياع أبدي يدرك صاحبه أنه لن يعود إلى نار من جديد، وعندما يتأكد من ذلك يواصل رحلته في عالِم بلا أرضٍ، بلا تَجَسُّدٍ، سوى في صخرة يعرف أنه يمكنه الخروج منها هي الأخرى، فلا سبيل للحنين، ولا سبيل للالتئام، لا سبيل للتجسد، ولا سبيل للسلام، وسلامي ليس كالسلام، سلامي مهاجر أبدي، لا يملُّ الحركةَ، ولا يستطيع أن يتمنَّى ماضيًا أو مستقبَلًا!

هل ذنبي أنهما قاما بتجميعي أو تركيبي ووضعي في هذه القرية التي تبدو مهجورة؟ وجمال الجزيري يريد أن يجرّب فينا! أو فيَّ! فها هو يطالبني بأن أقوم بسرد حكايتي، روايتي، يقول إنه يريد أن يعطيني الفرصة لأن أعبر عن نفسي، بدلا من أن يستبدَّ هو بالسرد لوحده ويتكلم عنّي. وأنا.. ماذا أقول؟ وذاكرتي ذاتها شتات

آخر. ولا أعرف كيف قام ذلك الجزيري بتجميعي هكذا. كنتُ أظن نفسي تلاشيتُ تمامًا وأصبحتُ صدًى باهتًا لا يؤرّق أحدًا. وها هو جمال يؤرقني وكأنه ينبش قبري.

في البداية كان الراوي في قصته السابقة أو فصل سابق من هذه الرواية – لا أدري بالضبط إلى أين سيوصلنا جمال الجزيري بتجريباته هكذا..

- يا عم جمال، والله، والله، لسْنَا فئرانَ تَجَارُبَ.
- هل أدخل على الخط معك يا...؟ ما اسمك؟

ليس لي اسم! أنت الذي جمَّعتني، وأنت الذي تذكّرتَني، وأنت الذي لممتَ شتاتي! عليك أن تجمّع اسمي. أنا كنتُ أعطي ظهري لذلك الراوي، كنتُ ساكنًا، وربما لم أكن موجودًا أصلا، وكانت عدسته مشوَّهَة، وأخذ يتخيّلني، سجَّل – على حِسِّي – نصفَ ساعةٍ على جهاز التسجيل بهاتفه، أو صداك الذي أرسلتَه مع الراوي إلى مصر لينظر من سطح شقتك بمنظاره وضع السمّاعة التي توصله بجهاز هاتفك في غربتك، ولم أعد أدري من الذي يسجّل: أنتَ أم صداك أم ذلك الراوي؟ أخذ يتأملني نصفَ ساعة كاملة ويقول إنه ينقل قصة على الهواء، يقول إن القصة بدأت تتحول إلى رواية، وإن السؤال عن الرواية في بداية تلك القصة اتضح أنه لم يكن عشوائيا، فاللغة لها منطقها الخاص، تكاد تقارب الحدس، فتقول على لسان صاحبها ما لا يعرفه هو أو يدركه إدراكا تاما.

وبالرغم من أنه كان يراني منظَرًا ثابتًا في معظم الأحوال، أو هكذا يتخيَّل، ولا أعرف إن كان ساعتها قد غيّر نظارته عند طبيب العيون الذي كتبتَ أنت عنه أيضا قصة قصيرة ربما وأخذتَ تسخر منه ومن لهجته العلمية الباردة.. هل كان يراني أم شُبِّهَ له؟ هل كان يرى صورة ثابتة ويتخيَّل حركتَها ويتخيَّل الأحداثَ. كأنه يعيدُ ترميمَ حكايةٍ كما يقوم الأثريون بترميم المعابد والآثار؟

ربما كنتُ أنا أيضًا مَعْبَدًا، وأَذْكُرُ أنني عندما كنتُ أتلصَّصُ عليكَ من ورائك إلى شاشة الكمبيوتر، وجدتُكَ تشاركُ صورةً فيها رجل صعيدي بجلباب واسع مثل جلبابي هذا الذي وَضَعْتَنِي فيه، لكنَّ جلبابَ ذلك الرجلِ كان أقربَ إلى اللون الزيتي أو خليط بين اللون الزيتي والبُنّي، وها أنا لا أرى نفسي إلا بذلك الحلباب الذي تخيّلني ذلك الراوي فيه: جلباب أزرق فاتح كلون السماء أو كلون البحر، لكنه أفتحُ قليلا، وبكُمٍّ واسع، هل ذلك الكرسيُّ الذي وَضَعْتَني عليه كرسيٌّ هزَّازٌ بالفعلِ؟ أم أنني معلَّقٌ في الهواء كأنني أجلس، ومَن ينظر لي على البعد يراني جالسًا على كرسيٍّ هزَّازٌ، كأني دُمية معلَّقةٌ في الهواء الساكن تمامًا بخيوطٍ لا يراها أحد؟

ألم يُشفقُ عليّ ذلك الراوي عندما وضعني في مكان مهجور تمامًا وتخيّل للحظات أو لدقائق شخصًا آخر بجانبي، وتخيّل كوبَ شايٍ؟ ألم يشفق عليّ عندما وضعني في مكان مهجور لا توجد فيه إلا بيوت طينية لم يتردد فيها نَفَسٌ واحدٌ منذ عشرات السنين ولا أسمع سوى فحيح ثعابين وأصوات حشرات، وكأن تلك العيون التي كان يتحدث عنها هي الرعب بعينه أمامي وأنا واقف ساكنًا لا أستطيع أن أهرب، لا أستطيع أن أنتزع نفسي من مخاوفي، لا أستطيعُ أنْ أفعلَ شيئًا أمام هذه الجيوش الرابضة خلف الأكواخ المهجورة؟

ماذا أقول لك؟ لا أذكر شيئًا. أنا مُعَلَّقٌ هكذا، وربما كنتُ روحًا معلَّقةً أو صدى تائهًا، وأنت أيها الراوي الذي وضعتَ لي هيكلًا وجلسةً وجلبابًا وملامحَ، وصنعتَ لي قصةً وتاريخًا، وأنا كدتُ أنسى حتى جسمي، حتى تَجَسُّدِي على هذه الأرض التي لا تعترفُ بالراحلين، ولا تعترف بالذين رحَّلتْهم، ولا تعترف ببصمات دبَّتْ على هذه الأرض في يوم ما، وكانت تتطلع إلى أن تعانقَ الوجود كلَّه، لكن تحولات كأنها الثورة ربما، كأنها الفيضان، كأنها الطوفان، كأنها العاصفة الترابية، الرملية،

التي تجرف كل شيء، حدثتْ أو اندلعتْ أو ثارتْ أو قامتْ أو قعدتْ أو أي شيء، المهم أنَّ كُلَّ التطلُّعاتِ تلاشتْ فجأةً، ووجدتُني صدًى مشتَّتًا في البلدان، ما بين رواية لكاتب سوداني، ورواية لكاتب مصري، وأغنية لمطرب مصري تتغني بالطين وبالسُّمرة، وبماء النيل، وبين لوحة من بلد غريب لمستشرق أو مستغرب تاه ذات يوم فجسَّد التوهانَ في لوحة هي أنا...

لم أستغرب منذ أيام عندما وَجَدْتُكَ تسجّلُ قصةً تسرد فيها كيف أنَّكَ وجدتَ نفسك في لوحة لفنَّانٍ من بلدٍ بعيدٍ، ماتَ منذ مئات السنين. وجدتُ نفسي تائهًا في لوحة فنان آخر كان يجسِّد التوهانَ والشتاتَ في شخصية ربما كانت بلا ملامح، لم تكن ترتدي جلبابًا بلديًّا، ولم تكن معلَّقةً في الهواء، إذ كانت هي الهواء ذاته وقد اتّخذ شكلًا وحركةً وجسمًا، لكنه هواءٌ محروقٌ، هواء يُشعِرُكَ بضيق النَّفَسِ عندما تتأمَّله. عندما تتلمَّسُ ألوانَه، تغيمُ عيناكَ، فلا تعرف لك أرضًا، ولا تعرف لك جذرًا، ولا تعرف لك أُفُقًا، ربما لهذا السبب يا جمال قبلتُ عرضَكَ، وقلتُ: أُنَفِعُكَ بقصة، أو جزءٍ من رواية، وأسرد لك قصة أنا لا أعرفُ تفاصيلها، قصة هي الأخرى كالهلام، كالزئبق، كذلك الهواءِ المحروق، قصة محروقة لا توجد بها أي ذرة من الأكسجين، الهواء فيها مجرد حروف تدل على الغياب، تدل على الانفصال، تدل على انقطاع الخطوات...

تخيَّلْ أنك تجلس في صحراء، ربما قادتكَ إليها خطواتُكَ، ربما أوصلتْها إليكَ تلك الثورةُ التي تَحَدَّثْنَا عنها منذ قليلٍ، أترى؟ ها أنا أتكلم بصيغة الجمع! هل صيغة الجمع هنا تجمعني بك أم أنني أفخّم من نفسي التي تحدثتُ عنها منذ قليل؟ ولو كان هناك ضمير يدل على غياب الأنا ذاتها لأستخدمتُه، لكن اللغة هنا تفرض حضوري، كأنني كنتُ أسير على طريق ربما كان أخضر، ربما في قرية، ربما في صحراء

أملأها بالخضرة، ربما في خيال فسيح كنتُ على وشك أن أجسِّدَه على الأرض أمامي، لكنَّ الخيالَ نورٌ، الخيالُ براحٌ، الخيالُ حياةٌ، الخيالُ انطلاقٌ، الخيالُ طوفانٌ، ومَنْ يصرُّون على الاعتصام بالجبال لا يريدون لهذا الطوفان أن يكتسحهم، وربما حوّلوا الجبال الرابضة المتوعدة إلى فوهات عملاقة، أجواف عملاقة تستطيع أن تبتلع كل الخيال، كل الماء الذي خلق الله منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، وها هي الجبال على البُعد تنظر إليّ ساخرة، تتشفَّى في الصحراء التي خلّفها الطوفانُ بعد أن ابتلعوا ماءه، وينظرون إليّ وإلى شجرة حياتي نظرة ساخرة، نظرة تفيض بالغِلِّ والحقدِ والسخريةِ والتَّشَفِّي وزهوِ الانتصارِ، وأنا جالسٌ عاجزًا، كأنَّ كلَّ الحَوْلِ والقوَّةِ تسرّبا منّي، أو أن إرادتي كانت مثقوبة، بفعل فاعلٍ، وها أنا أكتشف عبث حالتي بعد فوات الأوان، وكأنني مَسْخَرَةٌ، كأنني أرض للسخرية، للعبث، للطوفان الخامل الذي لا يقدرعلى شيء، مع أنه كان يظن أنه يستطيع أن يكتسحَ كلَّ ما يُوقِفُ الحياةَ في لقطةٍ ثابتةٍ لا تبرحها لتنطلق إلى آفاق جديدة من البناء والتنويع والتنوع والعمل الذي يزرع الأمل والخضرة في هذه الصحراء!! ولا أعرف إن كانت الصحراء موجودةً من قبل وأنا الذي لم أدركها، لم أتبيّنها، لم أكتشفها، أم أنها هي الطوفان ذاته بعد أن عبثَتْ به يدُ مونتاج هائلةٌ وغيَّرَتْ مسارَه إلى رمالٍ تستطيعُ أن تبتلعَ المحيطات كلها وتقول: هل من مزيد؟

وجدتُ نفسي فجأةً أجلس تحت شجرة جرداء في صحراء، اختفتِ الطريق التي كنتُ أسير عليها فجأةً، وكأنَّ كلَّ الخطواتِ التي قطعتُها صارتْ وهمًا، لم تعد هناك طريق ولا أرض بأي شكل من الأشكال، فقط كأن الصحراء، هذه الشجرة الجرداء، توجد عند مبتدأ الأرض، مبتدأ الطريق، مبتدأ الـ.. ماذا نسميه؟ الكيان المادي؟ الوجود؟ الطين؟ الطمي؟ المادة، مبتدئ المادة، مادة بلا روح، وما يمتد

أمامي صحراء بلا طريق، تخيَّلْ أنك تجلس هكذا وتنتظر مارَّةً، وأنت تدرك أنه لن يمر بك أحد، وتدركُ أن الرمال قد تبتلعك في أي لحظة، بالرغم من أنه يطمئنك أحيانا أنك تشعر أنه لا توجد وحوش في هذه الصحراء، فلا يمكن لأي كائن كان أن يعيش هنا...

لكنني أكره الانتظار، وتلك المسرحيات العبثية تُشعرني بالغثيان، تشعرني بأنه لا يمكن للكون أن يدور في الدائرة نفسها هكذا!!! لا يمكن!! وكيف يمكن أن تدور الدائرة هكذا؟ أدرك أن هذه المسرحيات ذاتها تنفتح على أمل في أن يظهر أحد، يظهر شيء، يتغير الوضع في يوم ما، في مستقبل قريب أو بعيد، لكنني أملُّ الانتظار الآن، وهل كنتُ طوال تلك السنوات إلا منتَظِرًا؟ وذلك الراوي أخرجني بمنظاره من دائرة الانتظار الجهنمية، من تلك الآلة الجهنمية التي ربما كانت في مسرحية أخرى، حين ينفتح التاريخ القديم على التاريخ المعاصر، حين ينفتح الماضي على الحاضر وعلى المستقبل. نعم، أدرك أن كل الخطوات تنتهي لخطوة واحدة كبيرة، وأدرك أن الزمن ليس دائريا وليس ممتدا، وإنما هو زَخمٌ، هو برزخٌ، هو مكان لقاء، تتجمع فيه كل الأوقات وكل الأزمنة وكل اللحظات الخاصة والعامة، وكل الأمكنة، وكل الأشخاص، في بوتقة واحدة قد لا يراها الكثيرون، لكنها موجودة، وأنا شخصيًّا أحسستُ بها في سنوات الانتظار، سنوات الطوفان وما قبله وما بعده.

وها أنا يتعاظم شعوري بها بعد أن ألقى عليّ ذلك الراوي نظرته ومنظارَه، بعد أن جعلني أخرج من الدائرة التي لا أعرف إن كان أحدٌ فرضَها عليّ أم أنا الذي تواطأتُ معه لفرضها عليّ أمْ أنا الذي أفرضها على نفسي!! ولكنها كانت موجودة، وكانت سنوات تيهٍ واغترابٍ، فالوعي تحوَّلَ إلى نقمةٍ، والنِّعْمَةُ تحوَّلَتْ إلى وعيٍ

ينفجر بالمرارة، بالأسى، بالإحساس بأنني دُمية، أو على الأقل بي جانب من دُمية، وما علاقة الدمية بالآدمي؟ هل تشابه بعض الحروف يدل على شيء؟ هل هما من منبع واحد؟ لا أظن، فالدمى صناعة بشرية، أما الآدمي فخلقٌ إلهيٌّ، وسبحان الله العظيم! لا يمكن للدمى إذًا إلا أن تكون لعبةً صَنَعَهَا أشخاصٌ ما لتحقيق مصالح ما، وأنا الآن أتقلّب في وعيي، كأن نظرة ذلك الراوي أيقظتْ روحي من جديد، أو على الأقل صدمتْ روحي وجسدي معا ليستطيعا أن يعيدا التعرّف على نفسيهما، على بعضهما، حتى يستطيعا الاقتران من جديد، بعد أن تشتَّتُ هكذا، ما بين صخرة وهواء محروق، ما بين مكان ثابت واللامكان، ما بين الجذور والإنبات في وسط الماء في وسط المحيط...

ما الذي أوصلني إليها؟ هل إلى هذه الصحراء؟ هل إلى هذه الحالة؟ هل من الطوفان إلى الصحراء؟ لا أعرف، فقط وجدتُ نفسي هكذا، كأن ذاكرتي انقطعت تمامًا، كأن خطاي انقطعت تماما، وانقلبَ المشهدُ فجأةً إلى شيء آخر، كذلك الذي كان يراه الراوي من فوق سطح شقتك يا جمال، وأهنئكَ فعلا، أو أهنئ أولئك القراء الذين تركوك في غربتك ونقلوا جو قصة الأصوات – أو التي اتضح فيما بعد أنها مبتدأ الرواية – إلى سطح شقتك التي لم تنتهِ من تشطيبها بعد ولم تسكن فيها ولم ترَها، بالرغم من أنني أدرك أنك نزلتَ مصر في أجازة العيد وجلستَ فيها ليومين بلا أي أثاث.

ما الذي نقلني إلى هنا؟ نعم. كنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، كنتُ عَدَمًا إلى أن نظرَ ذلك الراوي بمنظاره من فوق شقَّتِك، ومن المفترض أنه كان سيرى شُقُقًا وفِيللَ وعمارات في تلك المدينة الجديدة العامرة، وسيرى في الطرف الآخر الأهرامات، وسيرى من طرف ثالث الجيزة وشارع الهرم وشارع فيصل، ومن ناحية أخرى مدينة

الإنتاج الإعلامي و٦ أكتوبر. يعني منطقيًّا لن يرى أي شيء إلا الحياة العامرة، الازدحام، التدفق، العمران، لكنه نظر من ذلك المنظاروآني، كيف رآني؟ منطقيًّا، لا أستطيع أن أفسِّر! وكيف بدأ ينقل وقائع على الهواء إلى أن انتقل الجسد المعلَّق في الهواء إلى جسد حقيقي؟ وها أنا أستشعرُ نوعًا من الحياة وأنا أحكي لك. أنا أروي لك تلك الرواية.

هل تلك الرواية أم هذه الرواية؟ وهل أنا بعيدٌ عنها أم في مركزِها؟ هل أنا أبصرُ نفسي أم أتوهّمها؟ هل أراها متجسدة أمام عيني أم هي مجرد محاولات مني لأن أتحرر من هذه الصخرة، من هذه الصورة الثابتة، من هذا المحاولات المستميتة من العيون الزجاجية والحجرية لأن تلتهمني وتلتهم كل هذا البراح؟ حتى لو كان هذا البراح صحراءَ، فهو على الأقل براحٌ واحتمالُ إعمارٍ، احتمالُ ولادة جديدة، احتمال انبعاث لي ولغيري بعد هذا السكون، بعد هذه الدماء، بعد هذه الانفجارات بالبالوعات والمجاري والشاشات والعدسات التي تلوّن كلَّ شيء على هواها وعلى هوى من يمتلكها ومن يحركها ومن يضبط زواياها! ويا لها من زوايا! يا لها من تلاعبات! يا لها من انحسارات، من انكسارات، من رؤى تعادي النظرَ وتعادي الإبصار وتعادي كلَّ مَن له عينٌ ترى بنفسها بعيدًا عن فروض الشاشات والإملاءات والمونتاج!

هل نبدأ من هنا عندما رآني بمنظاره؟ كنتُ خواء، وكنتُ انتظارًا مُمِيتًا، أو كنتُ أنا الموتُ متجسِّدًا في شخص يُشبهني، شخص كان كالصدى، ولكنه ليس ذلك الصدى الذي سافر مع الراوي إلى شقتك لينظر من هناك بالمنظار. ما الذي دعاك لأن ترسل ذلك الراوي؟ فهو مَنْ أَخَذَ ينفُثُ، أو يبثُّ، فيَّ الحياة قليلا قليلا بسبب الهواء الذي ينقل تفاصيل دقيقة عنّي، كأنني حيٌّ فعلا، والغريب أن الحياة بدأتْ

تدبُّ فيَّ، وبدأتُ أحرّكُ يدي، بدأت نظراتي – التي كانت متجمدة كأنها تمثال من زجاج – تتحرك يمينًا ويسارًا، وبدأتُ أهزُّ إليَّ بجذع الشجرة، كأنني أستحلبُ الحياة، أستحلب البشارة، أستحلب نفسي لأتشكّل أمام عينيّ حتى أُبْصِرَني وأرى مَن أنا وكيف وصلتُ إلى هذه الحالة.

هززتُ الشجرةَ، فتساقطتْ بعضُ الثمار الجافة التي ربما كانت محنَّطَة هي الأخرى، الكلُّ انعكاس للكل، والجزء انعكاس للكل، والكل انعكاس للجزء، هندسةُ الفِرَاكْتَل يا جمال، فسيفساء يعكس بعضُها بعضًا، يناظرُ بعضُها بعضًا، يلقي بعضُها الضوءَ على بعضٍ، والجروح قصاصٌ، فما بالك بكل هذا الخواء! كل هذا العماء! كل هذا الاستواء في الجرح وفي اقتناص البصر، وها أنا أرمي نفسي بالحجارة، أمد يدي إلى هذه الشجرة، أحاول أن ألتقي بعضي، أحاول أن ألتقي الكل، أحاول أن أمد حبال الوصال إلى ذاكرتي ومعناي وحضوري. طبعا لم أتوقَّعْ رطبًا جنيًّا ولا شهيًّا ولا أي شيء، فأنا أدرك أن هناك صحراء، وأن على الجانب الآخر العدم، بمعنى أن لا أحد ينتظر فضيحتي، ولا أحد ينتظر ميلادي، ولا أحد ينتظر بشارتي، فأنا أحد أو نكرة بلا فضيحة وبلا ميلاد وبلا بشارة. ومع ذلك أنا موجود، هكذا أحسستُ، وهكذا قَرَّرْتُ أن أستخرج وجودي إلى حيز الوجود، أو أن أُدْخِلَ هذا الوجود إلى حيّزي، فلا بد أن يشتعل الوجود، وأجدني أضحك، هل ينقصُ هذا الصهدُ اشتعالا؟ أم أن هذا الاشتعال نقيضُ الصهد، نقيضُ الجفاف، نقيضُ العدم؟

حمدتُ الله أنني وجدتُ نفسي آكل كأنني لم أتحنَّط منذ عشرات السنين. في البداية أحسستُ بالغرابة، وهززتُ الشجرة ولا أعرف لماذا، ووجدتُ تلك الثمار تساقطتْ ووجدتُ يدي تمتد إليها. لم أستطع أن أتصوّرَ فائدتَها أو أتصوّرَ أسناني

في البداية، لكنني وجدتُ يدي تمدُّها نحو فمي، ووجدتُ فمي يتحسَّسُها، ووجدتُها صلبة جدًّا، وكأن ذاكره اللمس، ذاكرة الأكل، ذاكرة التحسُّس، ذاكرة شفتيّ – كل هذا عاد فجأة، ووجدتُ أسناني تتلهف على شيء، ليس من ذلك الشيء الذي وصفتَه أنت في "لمسة نهائية[١]" على ما أظن، أليستْ تلك القصة التي يحاول فيها الشخص أن يتخلَّص من كل قوى الشر داخله، أن يتخلّص من رغبته في أن يبيد كلَّ الكائنات حوله، يحاول أن يمنع نفسه من أن يلتهم ذلك الإنسان البائس المار في الشارع؟ وأخذ ذلك الإنسان يعاند نصائح البطل، بطل القصة، يقول له:

- ابتعد. سآكلك، سأقضي على حياتك.

وهو لا يريد. ومن هنا بدأ البطل يستعيد وعيه أو.. كل الضحايا السابقين لم يقاوموه في شيء، وها هو ذلك الإنسان يقاومه. وها أنا أسناني بدأت "تتلمَّظ" كما يقولون، هل يقولون تتلمّظ على اللسان أم على الشفاه؟ ما معنى "تتلمَّظ" أساسا؟ إحساس بأن الأسنان تريد أن تتلامس مع تلك الثمرة التي لا أذكر ما نوعها، استحضرتْ ذاكرتي مسميات كثيرة، لكنني لم أستطع أن أميِّز بينها: تمرٌ، دومٌ، تفاح، رمان، تين.. لا أذكر بالضبط. في كل الحالات، هي ثمرة جافة.

أَتَذْكُرُ يا جمال تلك الثَّمرةَ التي أعطاها لك الغرابُ في "طقوس العبور[٢]"؟ لماذا لا أتذكَّرُ أي شيء عنك سوى كتاباتكَ وقصصك وما تشاركه من صور أو أغنيات على ما تقول عنه إنه الفيسبوك؟ من أنت؟ ولمَ لا تجيبني هكذا؟ كونُكَ أرجعتَني مرة أخرى للحياة لا يعني أن تتجاهلني هكذا!

---

[١] "لمسة نهائية" قصة قصيرة لجمال الجزيري.

[٢] طقوس العبور رواية قصيرة لجمال الجزيري في مجموعة رواياته القصيرة "شوط أول: ست روايات قصيرة". دار الأدباء، ٢٠١٨.

- يا عم، لا أتجاهلك، واللهِ، لا أتجاهلك. قلتُ لك من قبل سأعطيك الفرصة كي تتكلم، وأنا أريد أن أصمت كثيرا. أريد أن أقترب منك فيذهب عنّي ذلك الأرقُ وذلك العذابُ وذلك السهرُ. لدي محاضرة باكرا في الصباح ولا أستطيع النوم، وغدا بالذات لدي عمل في الجامعة من الثامنة صباحا حتى الثامنة مساء على فترات متقطعة، لكنني سأذهب للجامعة ثلاث مرات غدا، وأستطيع أن آخذ قسطا كافيا – حلوة "قسطا" هذه! لا أحب الأقساط – أريد أن آخذا كاسًا كاملا من النوم حتى أستطيع أن أركز في محاضراتي، حتى أستطيع أن أقود سيارتي بأمان، فلا يتشتت ذهني، ولا تتشتت عيني فأصطدم بأحد، أو على الأقل تنزعج زوجتي وتطلب مني أن أذهب إلى الجامعة بتاكسي في هذا اليوم. ليس تعاليًا. أنا أريد الإنصات، أريد الاستغراق في صوتك حتى تستلّ أرقي ووجعَ بصيرتي، وربما أتخلّص من الإحساس بالذنب تجاهك وتجاه عماء بصيرتي، ولا أعرف إن كان عماء أم عمًى! فأدرك أيضا أن العماء يرتبط ببداية الحياة، يرتبط بالخلق، هل أريد أن أنتقل من عمى بصيرتي إلى عمائها؟ ولماذا يتراءى لي هذا العماء سُحبًا وغيوما يمكنها أن تروي صحراءك وصحرائي؟ أعرف أنني أقلقتُ مضجعَكَ، وأنني أخرجتُك من التيه، أو على الأقل وضعتُك على بداية طريقة الخروج، فأنا أيضا أحاول أن أخرج من تيهي، من توهاني، من شتاتي، فأنا مغترب مثلك، والفرق الوحيد أنك داخل الوطن وخارجه، وأنني خارج الوطن وداخله، لا تستغرب هكذا، فاللغة محيّرة جدا، ولا تستطيع أن تقبض على إحساسنا بالمعنى، فأنت صخرة في الداخل وروح هائمة ومشردة في الخارج، وأنا أعمل بالخارج، وروح مشتّتة في الداخل والخارج، ولا بد أن تلتقي أرواحنا جميعا – أنا وأنت والشجرة وكل هؤلاء وكل أولئك في برزخ واحد حتى ننهض من هذا التيه، وها أنا أحاول الآن أن أجعلك تعرض نفسك لذلك

القارئ الذي ربما سيقرأ هذا الجزء من الرواية فيما بعد، فهو بالتأكيد من "هؤلاء" أو "أولئك"، ولا بد أنه يحتاج إلى نظرة من أحد، نظرة منك أو نظرة مني، حتى يبصر التيه حولَه، ويبدأ معنا في الخروج، يبدأ معنا في الظهور أو الانبثاق في حيز الوجود... ألا تدرك أن الرواية والرواء والروي والريّ أبناء عمومة أو أخوات أو إخوة، ولا بد أن نرتوي يا صديقي حتى تتدفق الحياة فينا، حتى يسري هذا النيل في عروقنا من جديد.

- كلّ مرة، تقول رواية رواية رواية، وها هي رواية أخرى لك لم تكملها. تبدأ في رواية وتسجِّل ساعاتٍ منها على الهاتف، وربما لا تجد الوقت حتى لتفريغ الملفات الصوتية من على الهاتف، حتى تلك الرواية التي سجلتَ فيها حوالي ساعتين منذ سنتين، ثم نقلتهما إلى جهاز الكمبيوتر، وأضفتَ لهما بعض الأشياء وتوقَّفتَ عند صفحة ٣٥ على ما أظن، لم تكملها.

- ومن أين أجد الوقت يا صديقي؟ من أين أجد الوقت؟ عملٌ على الدوام. مقالات، ودراسات، وقصص، وروايات، وقصائد، وكتب نقدية، وترجمات، وإدارة مجموعات فيسبوكية، وأبحاث باللغة الإنجليزية، وقراءات لا تنتهي، ومذاكرة أولاد، ومتطلبات أسرتي، وفوق كل ذلك اغتراب عن النيل وعن أرضنا وعن لقمة عيشٍ نابتة في هذه الأرض. من أين أجيء بالوقت لأتفرّغ لرواية، وأنا الذي لم آخذ يوما واحدا أجازة منذ أربع سنوات كي أستطيع أن أسدد ثمن شقَّتي؟ بعد ذلك يقولون: "جمال في السعودية. جمال يُعَبِّئُ الأموال في زكائب وتلاليس وشيكارات"!!

- أموال، زكائب، تلاليس، شيكارات! ما معنى الأموال؟ أذكر جنيهات، قروشا، ملاليم، ٦٠ فضّة، ١٠٠ فضّة، سحتوت. هل أصبحت الأموال عندكم الآن تُعبَّأ في زكائب؟ وماذا ستفعلون بكل هذه الزكائب؟

- آه، نسيتُ أنك تائه في تلك اللوحة منذ عشرات السنين، ونسيتُ أن الخمسة جنيهات كانت تستطيع أن تشتري فدانا كاملا من الأرض على عهدك، هذا إن كان عهدُك هو الذي في مخيّلتي! ولا أظنه كذلك، نحن عهدٌ واحدٌ، والعهد ميثاق تاه عن مساره، وتوَّهَ معه كلَّ من يدورون في نطاق هذا المسار، وها هي الأرض قاحلة، وها هي الفدادين يُعاد تخصيصها، وها هو البراح يتقلّص، أو أنه تقلّص بالفعل، واتضح أن تلك الحركات نحو البراح ما كانت سوى حركات فاقدة للذاكرة، فاقدة للترابط، ومن هنا تسلل العدمُ إلى الخطوات، واستحال الميثاقُ قَيْدًا، استحال مشنقةً، وها هي الفلوس الآن لا تشتري شيئا. والزكيبة الآن إذا امتلأت بالمال – على افتراض أنها تمتلئ بالمال – تستطيع أن تشتري لك شقة على الأكثر.

- أَلَدَيْكَ كل هذه الزكائب وتجعل راويك يتصوّرني في قرية مهجورة لم يدبّ فيها نَفَسٌ منذ ثلاثين سنة على الأقل؟!!!!!

- هل أنت جاد أم ماذا؟ هل صدَّقتَ موضوعَ الزكائب؟ والله العظيم – وليس لك عليّ يمين – استلفتُ هذا الشهر سبعة آلاف من الريالات لأسدد رسوم امتحانات السفارة لأبنائي وأكمل القسط الثاني من مصاريف المدرسة وأسدد رسوم بحث في مجلة دولية، ومازالت الكتب التي أرسلتُها للناشر للطبع لم أدفع تكاليفها بعد.

- يا عم، هل أبحث لك عن مليمين في جيبي وأعطيهما لك كي تكمل بهما زكيبتَك؟! ههههههههههههههههههه

- امزحْ، امزحْ، يبدو أنك تريد أن تتهرَّب من الحكي! تتهرب من الرواية! تتهرب من الرواء! تتهرب من الري! تتهرب من الروي!

- أي حكي وأي رواية وأي رواء وأي ريٍّ وأي رويٍ؟

- نعم يا حبيـــبي!! ألم نتفق على أن تحكي قصتك، على أن تجسّد روايتك؟

- قصتي؟ روايتي؟ روائي؟ نمائي؟ ربّي؟ رويي؟ ألا تعرف المثل القديم الذي يقول: هل أنا رأسي دفترٌ؟ لا أعرف ماذا تسمون الدفتر الآن، لكنه مجموعة من الأوراق نسجل فيها معلومات، نسجل فيها ما نعرفه أو ما نريد الاحتفاظ به كي نرجع إليه إذا نسيناه.

- أنا أريدك الآن، أو أريد أن أستمع إليك الآن، ولا أريدك، ولنرَ بعضًا مما هو مكتوب في ذلك الدفتر.

- ذكِّرني بما كنتُ أقوله قبل أن يهبط علينا ذلك التقاطع أو الانقطاع أو التوقف.. ماذا تسميه؟ كنتُ أتكلم في شيء، ثم دارت هذه الأسئلة، ربما لم تكن حاضرًا، وربما كنتَ أمامي، لكنني كلمتُك، ورددتَ عليَّ.. لا أستطيع أن أتذكَّر تفاصيل الموضوع تمامًا.

- سأذكِّرُكَ لوجه الله كي تعرف أنني أحبك ولا أريد أن تعود تائهًا في تلك اللوحة، اللوحة التي ربما سرقها أحد من المتحف الموجودة فيه ليصير ضياعُكَ ضياعين أو ثلاثة. أنا لا أعرف جمعَ الضياع. لو كنتُ أعرف، لكنتُ قلتُ: لتضيعَ عشرات الضيعات، الأضيعة، متاع أمتعة، صباح صباحات، ضياع أضيعة ضَيَاعات، و"ع الضَّيْعَة يا أمَّة ع الضيعة"..

- ههههههههههههههههه يا رجل، والله أنسيتني! أنت كنت تريد أن تطلب منّي شيئًا؟

- نعم، نعم، الثمرة، لا شيء غير الثمرة، أنت كنتَ تحدثني عن الثمرة وعن أسنانك، وكنتَ لا تذكرُ نوعَ الثمرة، ولكنك أكَّدتَ على أنها جافة وأن أسنانك كانت

تريد أن تتحرَّشَ بذلك اللحم حتى لو كان جافًّا، وكأنها – التي هي أسنانك – تريد أن تعود للوراء ثلاثين أو أربعين – لا أذكر – سنةً للوراء.

نعم، نعم، تذكَّرتُ، خذْ لك رُكْنًا، ألا تقولون هكذا، بمعنى تنحَّ جانِبًا؟ خذْ لك ساتِرا، خذْ لك جانِبًا أو جنبًا، وأفسحْ لي الطريقَ، والقرآن يقول: "وإذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافحسوا يفسحِ اللهُ لكم". هيا أفسحْ لي كي يفسحَ الله لكَ...

كانت أسناني تتحرش، تَحْتَكُّ، تتحسَّسُ تلك الثمرة، وكأنها كانت تريد أن يعاودها الإحساسُ بكيف تشتاق إلى شيء، تشتاق إلى فاكهة محرَّمَة أو غير محرَّمة، وكأن الثمرة صارت أمامي أو تتحول الآن أمام عينيّ إلى تفاحة تجمع ما بين الصفرة والحَمَار، ليس حَمَارًا قانيًا أو ناصعًا أو كذا. حَمارٌ ليس داكنًا أيضًا. ربما كان يجمع ما بين الحمرة واللون البَنّي، أو الحمرة واللون البنفسجي، عوانٌ بين ذلك كما يقول القرآن، وبجانبه اللون الأصفر، أو الذي يجمع بين الأصفر والأخضر، أو الأخضر والليموني، أو هو ليموني.

ها هي الثمرة تتحول أمامي الآن إلى تفاحة، لكنها تفاحة عادت مرة أخرى إلى الشجرة، وصارت الشجرة – أو على الأقل الغصن الذي فيه التفاحة – أخضر: له ورق باهت نعم، لكنه أخضر على أي حال. الخَضَارُ الباهت ولا الشجرة الجرداء، التفاحة الطازجة ولا الثمرة الجافة المتحجرة المحمِّضة، ألا تقول الأمثال المصرية ذلك: نصف العمى ولا العمى كله، حمارتك العرجا ولا سؤال اللئيم؟!

وضعتُ أسناني، أو اقتربت أسناني حثيثًا كأنها لا تريد أن تنقضَّ على الثمرة فجأة، وإنما تمهّد للقاء. هل تذكر إحساسَكَ يا جمال في طقوس العبور أيضا وأنت تخرج من ذلك الممر، ذلك الكهف، ذلك... لا أذكر بالضبط، إحساسك وأنت تخرج من ذلك الباب الذي يوصلك إلى الصحراء الوليدة ربما، والتي تجد فيها عم إبراهيم

أو عم إسماعيل، لا أذكر العم مَنْ؟ الذي قال لك: "نَمِّ فأسَكَ". واحترتَ ساعتها في التعبير في حد ذاته: الفأس جماد ثابت، فكيف تتم تنميته؟ فهمتُ التنميةَ ساعتَها بمعنى النمو، خاصة وأنكم ساعتها كنتم تستولدون الخضرة في الصحراء. هل تذكر إحساسَكَ ساعتها وأنت تأكل تلك الثمرة؟ إحساس أسناني كان شبيها بذلك، أو كانت أسناني تتهيأ لإحساس مثل إحساس أسنانك آنذاك. أنت كنتَ تعيش التجربة، ولكن أسناني كانت تستبق أو تتوقع أو تمهد للتجربة، بمعنى أن التفاحة كانت أمامها، وأسناني كادت تنسى، وربما كانت تنسى تماما ذاكرة التفاح أو ذكري التفاح، أو.. لا أعرف بماذا أسمّيها، أو كانت تنسى تماما علاقتها بالطعام بوجه عام، وخصوصا التفاح، أو أنها بدأت تتذكر علاقتها بالتفاح، وإلا لما تشكلت تلك الثمرة في هيئة تفاحة بعد أن كانت شيئًا أشبَه بالحصاة الجافة..

- وهل توجد حصاة لينة يا... ما اسمك؟ هههههههههههههه

عندما تلتقي أسناني بالتفاح ربما أتذكَّرُ اسمي. لكن ربما كان إبراهيم أو إسماعيل. هل إسماعيل ذلك الذي كان في طقوس العبور أم إبراهيم ذلك الذي كان في مسرحية البطاقة الحمراء[1]، المسرحية التي كتبتَها أنت يا جمال. لكنه كان ذلك الرجل الذي لديه جزء من حكمة الصحراء وكان يسخر من الشخصيتين: عزيز على ما أظن و... مَنْ ذلك الذي وضعتَه شخصيةً معادلةً موضوعيًّا لك؟ ها أنا أتذكر المعادل الموضوعي، فكرة خاصة بالأدب، أتذكر أي شيء خاص بالرواية، بالقصة، بالأغنية، باللوحة، بالنقد، ولا أتذكر نفسي!!! مع أنني أدرك تمامًا أنني لا أعرف شيئًا عن تلك الروايات أو الأغنيات أو...

[1] "كارت أحمر" مسرحية لجمال الجزيري كتبها في ٢٠٠٩ و٢٠١٠ ونشرها إلكترونيا في عام ٢٠١٥.

هل بثثتَ فيّ شيئا يا جمال؟ أم أن ذلك الراوي الذي أرسلتَه إلى بلدنا مصر وضع لي شيئًا يجعلني أتذكّر كل تفاصيل أعمالِك وكتاباتك، وكل قراءاتك، وكل ما تتخيَّلُه عنيّ وتتخيَّله عن نفسك وتُخرجه على الورق، أو يعيش في خيالك..؟ معادل موضوعي. ما معنى المعادل الموضوعي؟ أو لماذا استخدمتُ ذلك التعبير الآن وأنا أحكي لك يا جمال؟ لا يهم، لا يهم. المهم الأسنان التي كانت تتهيَّأ للمطر ههههههه هذه العبارة أيضا من قصيدة لك وربما من قصة يا جمال.

- يا عم حِلَّ عنّي الآن! حِلَّ عني يعني أنا في حِلٍّ منك وأنت في حِلٍّ مني. سأستمع في صمت. هيا، أكمل.

كانت أسناني فاقدة لذاكرتها، وكانت تحاول أن تُنشئَ لغة بينها وبين التفاح. كيف تفكُّ لغزَ تلك الثمرة المتدلية من شجرة خضراء وسط صحراء جرداء؟ سيقول ناقد آخر إنك هنا أيضا تتكلّم عن العالم الآخر فيما وراء الماوراء، من خلال طقوس العبور، ومن خلال ذلك الفصل من الرواية، أو تلك التي ربما لن تكملها يا جمال، وأتحداك! مع أنني أود أن تكملها، فربما في نهايتها أكون قد عرفتُ اسمي، قد تذكَّرتُ تاريخي، مع أنني الآن أدركُ أنني أنتَ، أو أنك وضعتَ فيَّ شيئًا ما، أو أكَّلْتَنِي شيئًا ما، أو ذلك المنظار سحرني بطريقة أو بأخرى، ذلك المنظار الذي كان يستخدمه راويك سحرني فجعلني أتذكّر، فجعلني جزءا من ذاكرتك، أو نقلَ لي ذاكرتك وكل ما كتبتَه وكل ما قرأتَه وجعلني أتذكَّرك ولا أتذكَّرني..

تفاحة هناك، أسنان لي تحاول التذكُّر، تمتد يدي وكأنها تشكِّلُ حروفًا ما بين أسناني وتلك التفاحة. أكاد أرى عينين للتفاحة: عينٌ تغمضُها، وعينٌ تفتحُها بفزعٍ، هل رأيتُ أنا تلك التفاحةَ في لوحة أخرى بجانب تلك اللوحة التي تجسِّد ما أسميناه التوهان، التيه، الضياع، الهواء المحروق الذي يتشكَّلُ في شخصٍ هو أنا؟

يدٌ وتفاحةٌ وأسنااااااااااان. بجانب الأسنان، بدأتُ أحسُّ بأن شفتيّ تتحركان، أن عينيّ تحاولان أن تتوصَّلا إلى ما وراء القشرة الخارجية للتفاح، وكان لساني يتمتم بأشياء لا أفهمها، هل بلغة أخرى غير اللغة العربية؟ أم بلغة تتجاوز لغات العالم وتتكلم بلغة ما وراء الماوراء، تتكلم بلغة الأسماء، بلغة برزخ الأسماء؟

- ها هي عبارتك، أو عبارتي، ها أنا جمال الذي يتكلم الآن. هل عبارتك هذه لغة ما وراء الماوراء؟!! ستجعل النقاد يظنون ظنونا، أو يفسرون النص كما يحلو لهم..

وماذا لو فسروه كما يحلو لهم؟ ألستَ أنتَ يا جمال الذي تقول بأن المؤلف لا بد أن يجعل نصه مكتملا بعيدا عنه وبعد ذلك يراه القارئ كما يحلو له حسب السياق؟ بمعنى حسب ما هو موجود داخل النص ذاته: إذا هم رأوا ما وراء الماوراء، فلماذا تستبدُّ أنتَ وتصادرُ على رأيهم؟ ألمْ تقلْ أنت أيضا يا جمال إن لاوعي الكاتب يكون مسئولا عن ٥٠ % من النص على الأقل؟ فهناك أشياء مختمرة في اللاوعي لا يحس بها الكاتبُ ذاته وتخرج رغما عنه دون أن يشعر، في نصه، وأنت ذاتك قلت إنك قرأت نصوصا لك وفوجئت بالكثير مما هو فيها ولم يكن في رأسك ساعة كتابتها أو ساعة تسجيلها على هاتفك. دعِ الخلقَ للخالق، ودعِ النصَّ للقارئ مادمتَ أكملتَه كما تراه أو كما يراه لاوعيك، فأنت ولاوعيك سِيان، أو على الأقل متكاملان: نصفٌ عليه ونصفٌ عليك، وها أنا الآن مُطَالَبٌ بأن أضع تلك اللبنة كفصل من فصول روايتك.

أعرف أنني ثرثرتُ طويلا. ربما أوشكتُ أن أتجاوز الساعة الآن، وأنا أحكي قصتي، لكنك تعرف أنني لا أعرف قصتي، وأحاول معك أو بك أو بعيدا عنك أن أرمِّمَها، أن أحاول أن أتذكَّر جزءا هنا وجزءا هناك، أحاول أن أجمّعَ صدى شتاتٍ تردَّدَ في أذني في تلك الصحراء الجرداء تحت الشجرة الجافة، أو رأيتُه هناك في تلك اللوحة التي تجسّد الهواء المحروق، أو أن رسَّامًا شاطحًا امتدّ خياله فرآني في تلك الصحراء وجسَّدني حسب رؤيته في تلك اللوحة.

لمستْ يدي التفاحة، فانفتحت العين الأخرى. تلاشى جزءٌ من الفزع، وتوزّع على العينين. صارت العينان مفتوحتين، وصارت يدي تتردد، ترتعش هي الأخرى، وكأنها تفزع من الفزع، يدي تفزع من فزع عينيّ التفاحة، واصطكت ببعضها كما نقول، فلم تعد تعرف إن كانت أسناني بدأت تستعيد ذاكرتها أم أن الفزع في عيني التفاحة بدأ.. أو جعلها تتراجع قليلا، أو تفقد جزءا مما استرجعتْه، وكأن التذكُّرَ يحتاج إلى السكن والمودة والرحمة، وكأن الأسنان، إذا لم تلتقِ بلغة الأسنان المقابلة، ستفقد ذاكرتَها وتصير حَجَرًا لا يستأهل إلا الثمار الجافة التي حنَّطَها الزمنُ وصارت شاهدًا على ما ولَّى، دون أن يجتمع فيها ما ولَّى أو يعود للحياة، دون أن تظهرَ الخطوات التي انقطعت، دون أن تتبدي الطريق التي تلاشتْ، دون أن تكتمل قصة تفاحةٍ وأسنانٍ، أو تفاحة ويد، أو تفاحة وشفاه، أو تفاحة وعيون، أو تفاحة ولسان..

هل عاد الغصن جافًّا أم أن ساعتي معك يا جمال أوشكتْ على الانتهاء وعلى التفاحة أن تنصرف الآن حتى تستكمل حياتَها معك في يوم آخر وتسجيل آخر؟

التفاحة

ربما لم أكن تفاحة. كنتُ معلقة كالسكون، وكان هو محنَّطًا أسفل شجرتي كصخر لا يتحرك، وما إن رَصَدَنَا ذلك الراوي، الذي أرسلتَه يا جمال إلى شقتك، بالمنظار حتى بدأتْ أشياءٌ تتحرك داخلي. كانت سنوات الانتظار قبل ظهور المنظار كالعدم، لا أعرف إن كان الهواء المحروق يحرك الأشياء أم لا، لكنني كنت أحس بأن كل شيء حولي فراغٌ محروقٌ أيضًا، وكأننا جميعا – الهواء والرمال والشجرة وأنا وذلك الذي لا أعرف اسمه – ساكنون تمامًا كأننا مثبَّتون، ولا هناك شمس تتَقَلَّبُ علينا، ولا هناك كلبٌ يحرسنا، ولا يكلمنا أحد، إلى أن جاءت نظرة العين من المنظار، وكأن المنظار ذاته هو الغواية وهو مفتتح الحركة.

رأيتُه أسفلي وقد بدأ شيءٌ يحدُثُ لسكونه، كأنَّ نبضًا دبَّ فيه، ووجدتُ عيوني هي الأخرى تدبُّ فيها الرؤية، وكأنها كانت تحتاج إلى نظرة عينٍ تلتقي معها أو بها أو ترصدها لتدبَّ فيها الحياة من جديد. لم أكن رجلًا أو شخصًا ثانيًا، كما كان يرصدني ذلك الراوي ويظن أن هذا الذي تحتي كان يحدِّثني. كنتُ كشجرة مقطوعة، كأنَّ أحدًا ثبَّتَها كعمود أو مِشْجَبٍ أو أي شيء من هذا القبيل، وكان هو تحتي، ربما لأننا هياكل عظمية، أو أجساد خاوية، أو سمِّها ما تشاء، رآنا ذلك الراوي شخصين يتحدثان سويًا، ورأى كوبَ شاي أيضا مع أنه بعد أن دبت فيه الحركة كان يحاول أن يحرك يده ليقترب مني، ليلمسني، وكأنه كان يتردد، ربما لهذا السبب ظهر في المنظار على أنه يمسك بكوب شاي في يده ويرتشف منه قطرات من آن لآخر.

ما الذي حدث؟ كنتُ أنا المعلقة بالشجرة، وكان هو كشخص بلا عمود فِقري يرقد تحتي ككومة لا معالم لها ولا مجال لإمكان حركتها. وما أن دَبَّتْ فيه الحركةُ حتى أخذ يدير عينيه. رآني هناك، وهناك أقصد بها على الشجرة حيث كان هو أسفلها تماما وكان يستغربني ولا يعرف كيف يتعرّف عليّ، كأنه نسي لغة الخضرة ولغة الثمار، ونسي ذاكرته، أو أن ذاكرته هي التي نسيتْه، أو كأنه بلا ذاكرة أصلا. ولذلك رآني هناك معلقة في الأعالي. ورأيتُه كإنسان ساقطٍ من أعلى شجرتي، فأشفقتُ عليه.

أنا أيضا بلا ذاكرة، فلا أعرف إن كنتُ تفاحة، أم بلحة أم رمانة أم ماذا. لكنني ما إن التقتْ عينُه بعيني حتى بدأتُ أتشكَّل كتفاحة، ولا أعرف ما سر النظرات التي تحول الكائن منا من عالم إلى آخر، من موت إلى حياة، من هوية إلى أخرى! نظر إلينا ذلك الراوي من المنظار، أو رَصَدَنَا بالمنظار، فدبَّتْ فينا الحياة، وتلاقتْ نظراتُنا فتشكَّلتُ على هوية أخرى، ولا أعرف إن كانت هوية أخرى أم لا، فلا أذكر مَن أنا! وربما لأنه قال لي إنه لا يذكر من هو وإنه وجد نفسه فقط هواء محروقًا في لوحة جسّدها رسَّام في لحظة تجلٍّ أو لحظة تخاطرٍ، أو لحظة تواصلٍ بينهما، بالرغم من أنه لا يعرف من هو. لكنه قال لي إنه وقف أمام اللوحة التي بها الهواء المحروق وكاد يتجمّد، أو كاد يتحوّل إلى مادة، فهو لا يعرف إن كان ميّتًا أم حيًّا. كان يرى ويسمع، لكنه كان لا يلمس لنفسه جسدًا، ولا يرى نفسه في مرآة أو غيرها. وعندما وقف طويلا أمام اللوحة، أحسَّ بأن خيوط نظرٍ بدأت تتشكَّل بينهما – هو واللوحة – وخاف أن يتجمّد مكانه، أو يتكتّل، أو يتصحّر، أو يتصخَّر، يصير كتلة، يصير مادة، يصير شيئًا جامدًا. خاف أن يحدث له ذلك، فهرب، على أمل أن يجد جسده ذات يوم، ويلتحما ببعضهما من جديد.

وأنا ربما وجدتُ جسدي في تفاحة، وربما كانت التفاحة جسدي، وذاكرتي لا تستطيع أن تستحضر ماضيها، أو ماضيَّ. حدث اللقاء في النظرات، فنشأتْ بيننا خيوطُ نظرٍ تجعله يبدأ في تذكِّر بعضٍ من ماضيه، من تاريخه، من وجوده في سنوات سابقة لا يذكر عنها شيئًا، ولا يذكر شيئًا حتى عن السنوات الفاصلة بين تلك السنوات السابقة واللحظة التي وقع علينا فيها ذلك المنظار.

وأنا أيضا. هل التذكُّرُ يعيد الحياة الهاربة مثلا؟ أم أنه يمنحنا حياة قد نظن أنها شبيهة بالحياة السابقة؟ شبيهة بالحياة التي نتطلّع لأن نتشكّل عليها أو بها أو فيها؟ وربما تجمع بين هذه وتلك، بين ما كان وما سيكون، هي حياة على كل حال، وها هي ذاكرتي تنتعش، تدب فيها الحياة من جديد، تبدأ في استحضار ذاكرة ما، لِلَوْنٍ عبقري الخَضار، ثري الخَضار، يجسّد الخَضار تماما، هل هو خَضار أم خُضرة؟ وهل الخضار أكبر من الخضرة؟ أحس بأن الخضار اسم جامع، والخضرة حالة من حالاته، تجلٍ من تجلياته، لقاء من لقاءاته، أحس بأن الخضرة نقطة في بَرزخِ الخَضار.

وها أنا أرى الغصن الذي أنا معلقة فيه مخضرًّا، بالرغم من أن الشجرة مازالت جافة، وها هو ذلك الذي لا أذكر اسمه يقف على رجليه، أو على قدميه، وهي نفس اللحظة التي بدأتْ فيها الأوراقُ بطرف الغصن تخضرُّ، وأحسستُ بأنني تخلَّصتُ من سكوني، وأن الغصن بدأ يتحرك بالرغم من أنَّ الشجرةَ والأغصانَ الأخرى الجافَّةَ ما زالتْ كما هي بلا حِرَاكٍ.

هل تنتظر نظرة من أحد؟ هل تنتظر أن تتشكّل خيوطا وبَصَرًا بينها وبين كائنات أخرى؟ أم تنتظر أن يأتي منظار من زاوية أخرى أو من جانب آخر ويُسقِطُ نظرة عليها، فتبدأ حياتُها في التشكُّل من جديد؟ ربما لا أستطيع أن أعبّر.

نهض بتثاقل أو بحركةٍ بطيئةٍ تمامًا، ربما استغرقتْ ساعة أو ساعتين، وكأنه يُعِيدُ تركيبَ جسمِه من خلال هذه الحركة البطيئة جدا، خاصة وأنه، كما قلتُ، كان ككتلة من اللحم بلا ملامح، بلا عمود فِقري، وربما بلا عظام تماما، وربما لهذا السبب استغرقتْ قيامتُه ساعات طوال لا أستطيع حصرها، لأنني أحسستُ بأن وقت قيامته كان أشبَهَ ببرزخ الزمن ذاته، كأن العظام كانت تنمو على مهلٍ، أو كأنها كانت مفكَّكة أو مُكَسَّرَةً في حادث ما أو مطاردة ما أو هجوم ما أو اعتداء ما أو.. ربما حتى ثورة ما. وعندما عاد إليه نظرُه، نظر إلى داخله ليجمِّعَ هذه العظام أو يفسح لها الطريق لتنمو بالطريقة التي تريد أن تتشكّل فيها وبها وعليها.

أحسستُ بأن الغصن المخضرَّ وجسمَ ذلك الرجل الذي بدأ يتشكَّل يلعبان على نفس الوتر الذي ربما يجعلهما يتكاملان، أو ربما كانا واحدًا في الأصل، وكانت نظرتنا، التي تساعد على توحدنا أو اكتمالنا أو اقترابنا، في حاجة إلى نظرة رافدة، إلى نظرة تمدّنا بـ... ماذا؟ خميرة بَصَرٍ؟ أم بذور بصرٍ؟ لها اسم! بصوة! جذوة نار مشتعلة تساعد على اشتعال الفحم أو الخشب أو... شعلة؟ لماذا أحسُّ الآن بحنين للفحم، كأنه من صُلبي، كأنني الحرارة المتقدة، كأنني البصوة، ما بصوة الأمل؟ ما شُعلة الأمل؟ ولماذا هذه الحنين الذي أحس بأنه جارف؟ وهل ينقصنا الآن اشتعال في هذه الصحراء الصاهدة، الصحراء الصهداء، إذا كانت هذه طريقة الاشتقاق من الصهد؟! نظرتُ إلى الأغصان الجافة في الشجرة وأشفقتُ عليها، خشيتُ أن يحرقها الصهد ويمنعها من أن تشعلَ روحَها لتخضرّ هي الأخرى وتَسْبَحَ في برزخ الخَضار أو الخضرة أو الاخضرار، وإن كنتُ أفضل الخضار لأنه يذكرني بالعماء، هل لأنهما على نفس الوزن؟ أم أن الحياة تجتمع فيهما؟ أم أنني أتوق لاكتمال بدايتي الجديدة؟ لماذا أنا أستطرد هكذا؟ فأذكر أنني بدأتُ كلامًا لم أكلمه، كنتُ

أبحث عن لفظ ما أصف به حالة الـ... لا أعرف طبيعة هذه الحالة، أو أنني لا أتذكرها، وها هو كلامي تَسَرَّبَ في الهواء، ولا أستطيع أن أستحضره لأعرف اللفظ الذي كنتُ أبحث عنه...

لا أعرف اللفظ بالضبط، ولا أتذكره الآن، ولا أعرف إن كان موجودًا في اللغة أم لا! كيف أقول إنني لا أتذكره وأتساءل عن وجوده من عدمه؟ هل اللغة التي نعرفها مجرد نقطة في برزخ الكلام والأسماء؟ هل اللغة تموت أيضا مع ضياع الذاكرة أو غيابها؟ بالرغم من أنني أظن أنني كنتُ أعرف اسم ذلك الرجل قبل السنوات التي تُهنا فيها، لكنني لا أذكره، وها أنا لا أذكر الكلمات التي أريد أن أعبّر بها. نظرة صغيرة، نحن في حاجة إليها، كي يشتعل نظرُنا، وتتصل قنوات التواصل بيننا.. ما اسم ذلك الشيء؟ ما الكلمة التي تدل على هذا؟

آآآآه يبدو أن الموضوع ليس بسيطًا، وما علينا أن نبتهج كثيرًا بأننا عُدنا إلى الحياة، فالكلمات تهرب، الأسماء تهرب، المعالم تهرب.. قال لي ذلك الرجل إنه سيبحث عن لوحة الهواء المحروق، كما لو كان سيبحث عن كنز ثمين، لكنه لم يقل لي لماذا سيبحث عنها، هل لينظر إليها نظرة أخيرة بعد أن تشكَّل له جسُده ليتحرر من خيوطها؟ أم لأنه يريد أن يحرقها أو يحتفظ بها أو...؟ احتمالات كثيرة، أسباب كثيرة، لا أعرف بالضبط. لكنه لم يصرّح لي بشيء. لا أدري لماذا أتكلم عنه بصيغة الغائب. نحن ها هنا سويًا. هل نحن ها هنا أم أن تلك اللحظة التي تَلَاقىَ فيها نظرُنا هي المسيطرةُ عليّ الآن وأتخيَّلُ أننا هنا والآن؟ بالرغم من أنه ليس هنا. وما المقصود بـ"هنا"؟ من الذي يتكلم الآن؟ هل أنا – تلك التفاحة التي على الشجرة؟ أم أنا – تلك التفاحة التي تم اختصارها في قضمة مضغها ذلك الرجل وتسرّبتْ إليه وصارت جزءا منه وكأنه يريد أن يبدأ حياته على حسابي؟!!

لا أعرف ما قصة الرجال مع التفاح. يقولون إنه هرب هو وزوجته بسبب التفاح! ويقولون إنه ضُبِطَ مُتَلَبِّسًا بأكل تلك التفاحة، ولذلك هو الوحيد الذي ظهرت له ما يقولون عليها إنها تفاحة آدم! ويقولون إنه خبَّأ بعض بذور التفاح في الورق الذي خَصَفَ منه، وأول شيء فعله عندما نزل أو هبط أنه قام بوضع تلك البذور في التربة!

بدأتْ يده تتحرك نحوي، لم أشعر إلا بالغضب، بالرغم من أنني كنتُ سعيدة بأن حياة تشكَّلتْ، بأن تواصلا نشأ بيننا، كأننا نعرف بعضنا منذ... متى؟ لا أدري! فلا أذكركم من السنوات مَضَتْ، ولا أعرف إن كانت تلك السنوات سنوات معدودة أم أنها نقاط في برزخ الزمن يمكنها أن تتزايد على الدوام، ولا أذكر حتى متى كنتُ أنا على قيد حياة أخرى، وماذا كنتُ؟ وما الذي حدث ليجعلني أتحجّر أو أتجمّد أو أتحنَّط أو... هكذا طوال تلك السنوات. لا أذكر شيئًا.

ورطة. تعود إليك حياتُك، أو تعود إليك حياة كائن آخر، فلا أذكرُ إن كنتُ تفاحة أم لا، وتجد نفسك فاقدًا لكل ذلك التاريخ السابق، فقط لديك إحساس أو هاجس بأن لك امتدادًا، بأنك كنت هناك، في الزمان؟! في المكان؟! لا تذكر بالضبط. من كان معك؟ لا تذكر. متى كنت؟ لا تذكر. أين كنتَ؟ لا تذكر. كيف كنت؟ وكيف كانت حياتك؟ لا تذكر. وربما لهذا السبب كان الغضبُ بارزا في عيني، وهو – ذلك الرجل – رآني غاضبة، ورأى عينًا لي مغمضة. كنتُ أحاول أن أغمض عينًا كي أستطيع – إن أمكن – أن أتذكر شيئا، فأدرك أيضا أن الظلام التام يساعد على تقوية حاسة النظر، حاسة التخيُّل، حاسة التذكُّر، وفي الوقت ذاته احتفظتُ بعين مفتوحة.

لا يُعقل أن أغمض عينيّ الاثنتين وهو يحاول أن يقترب منّي، ربما لأن لغة النظر هي اللغة الأولى أو الأساسية بيننا التي أنشأتْ التواصل، ولغة النظر هي التي بثَّت فينا الحياة من جديد من خلال ذلك المنظار، ونظرات صاحبه. لكنني كنتُ غاضبة، وكانت عيني مُحْمَرَّةً فعلا، فلم أكن أعرف لماذا يمد يده. أذكر من قبل أن من يمد يده نحو ثمرة سيقطفها في الغالب، سيقتلعها، سيقطع رقبتَها، سيجتثُّها، سيُيَتِّمُها، سيفصلها عن شجرتها، وربما يقضم منها قضمة ويلقي بها بلامبالاة في أي مكان: في سلة قمامة، على الطريق، لطائرينقرها، هكذا الإنسان دائمًا أو غالبًا.

نحن – عالَمُ الأشجارِ – لا نريد أن نعمِّمَ. شخصيًّا، لا أعرف من أنا ولا أذكر شيئًا، لكنني أذكر الكثير عن عالم البشر، وهو قال لي إنه لا يعرف شيئًا عن تاريخه ولا عنّي، ولكنه يعرف الكثير عما يكتبه جمال الجزيري ويعرف كل ما قرأه ويعرف ذاكرته تماما، بالرغم من أنه لا يعرف شيئا عن نفسه. هل يعيش في عقل شخص آخر؟ هل يعيش في جسم شخص آخر؟ متى اطَّلعَ على كل ما اطَّلعَ عليه جمال الجزيري؟ على كل ما كتبه جمال الجزيري؟ وهو كان محطَّمًا تحتي! متحجِّرًا تحتي! مُحَنَّطًا تحتي! متصخِّرًا تحتي! ولم يتواصل مع جمال الجزيري في البداية إلا عن طريق تلك النظرة من المنظار التي ألقاها الراوي عليه والراوي هو الذي أرسله جمال الجزيري! يعني هو تواصل من طرف رابع مثلا: المنظار، النظرة، الراوي، مَنْ أرسل الراوي/ جمال الجزيري.

يعني أنا لا أذكر شيئا عن عالمي وأذكر أشياء عن عالم البشر. هو لا يذكر شيئا عن عالَمِه ويذكر فقط تلك اللوحة التي تجسِّدُ الهواءَ المحروق ويعرف كل شيء عن جمال الجزيري. وجمال الجزيري نفسه قد لا يعرف شيئًا عن نفسه

ويعرف أشياء كثيرة عن آخرين. والآخرون لا يعرفون عن أنفسهم ويعرفون عن غيرهم، وهكذا.

ما هذه الدوَّامة؟ هل لأننا كلنا شبكة واحدة ولا بد أن تكون لكل منا حلقة مرميَّة عند الآخر كي نتواصل، نتشابك، نصلَ الحلقات ببعضها، حتى إذا أردنا أن نعرف أنفسنا لا بد أن نعرف الآخرين؟ وهل يدل ذلك على أن الكون كله متشابك: ضفيرة واحدة؟ سلسلة واحدة؟ سلسلة ربما تدل على التقييد! هل الكونُ كله ثمرة ونحن فصوص رمَّان مثلا؟ وما معنى الرمان؟ ولماذا أتت هذه الكلمةُ على لساني بدلا من السلسلة والضفيرة؟ أعرفُ السلسلةَ وأعرفُ الضفيرة، وأذكر كلمة اسمها الرمَّان. لا بد أن لها فصوص، ولا بد أن هذه الفصوص التي ذكرتُها منذ قليل متشابكة، متضافرة، متلاحمة، منتظمة في شيء متكامل، حياة متكاملة، نعم، لا بد أنها شيء هكذا.

حاولَ أن يقترب.. لا أدري. هل كان يجرِّب حركةَ يدِه؟ أم أنه كان يمدّ يدَه فعلا ليقطفَني؟ أم أنه أحسَّ بالتواصل بين أعيننا فحاول أن يجعل لهذا التواصل شكلا ملموسًا من خلال اليدين؟ لكنني لم أكن أتخيَّل.. أو لم.. ظننتُ ساعتَها أنَّ يدًا تمتد نحوي لا بد أنها ستقطفني، واستنكرتُ ذلك الفعل بعد بداية المعرفة التي نشأتْ من خلال نظرتنا، وكأن المعرفة ذاتها وسيلة للبتر، للقطع، للنهب، للسبي، للقتل، كما كان سيستخدمها ذلك الرجل في قتلي، في اجتثاثي، في قطعي.

تلعثمَ عندما رأى احمرارَ عيني. واحتار عندما رأى عيني المغمضة. كيف تجتمع الحيرة والتلعثم وربما الخوف والإجرام في ذات اللحظة؟ كان يمد لي يده: هذه جريمة. رأى الاحمرار في عيني. تراجع عن جريمته. رأى عيني المغمضة: لم يرَ ترحيبًا به أو تشجيعًا له على مَدِّ اليد. رأى العين مع الاحمرار: شُلَّتْ كلُّ قراراته، كل حركته

توقفت مرة أخرى. ولكنها لم تَعُدْ جامدةً، وإنما صارت كما لو كانت في حيرة تامة. لم يعرف كيف يتصرف، كأن خللا حدث في نظرته. لم يستطع أن يفسر حالة عينيّ كما رآهما. وبالتالي ارتعشت يده، تلعثم، امتلأت عينُه، أو فاضت عينه بالعجز، كأنني أربكتُه فعلا، أو أنني وضعتُه في اختبار لم ينجحْ فيه، ليس اختبارًا بالمعنى المباشر أو السطحي الذي تظنونه مثلا.. من أنتم؟ لا أعرف! ولكنني وضعتُ له نظرتين متغايرتين في عينيّ: نظرة غضبٍ ونظرة إغماضٍ كنتُ أحاول من خلالها أن أتخيَّل أو أتذكَّرَ أو أعيد تجميع أو ترميم صورة لنفسي في الظلام، وهو فهمَ ذلك على أنه تشجيع، وفهم الغضب على أنه إنذار. كيف أشجّعُه وأنذره أو أتوعّده في نفس اللحظة؟!! ربما كانت هذه لغة التفاح! لكنه لم يستطع أن يفهم أو يبني على ما هو ظاهر في عيني – وهو الغضب – دلالةً مغايرة لما في رأسه عن إغماضة عيني الأخرى.

أشفقتُ عليه، وكنتُ أودُّ لو أقترب منه، ولكن لا أعرف كيف أواسيه، أو أودُّ أن ألمس يده لأطمئنه وأعودَ إلى حيث أنا. لكنني كما قلتُ لكم، لم يكن إلا غصن صغير فقط هو الذي تدب فيه الحياة، وباقي الشجرة كان جافًّا كما هو من دون حياة.

لا أعرف لماذا أحسُّ بأن ما أحكيه ليس مترابطا! ربما لأنني لا أفهم، أو أن ذاكرتي لا تستطيع أن تعمل بكفاءة، أو ربما لأنني لم أستطع بعدْ أن أفسِّر أو أنظِّم ما حدث بعد أن دبَّت فينا الحياة. ها هو جزء من خدِّي مقضوم، سَرَى في جسده وصار جزءًا من دمه وابتعثَ قدرتَه على الطعام أو على الأكل من جديد، فلولا القضمة التي أخذها مني كان سيظل جسدًا خامًا، جسدًا لم تدب الحياة في كامِله، وإنما في هيكله العام فقط، ولهذا تركتُه يقضم قضمة من أثري، من خدي، وربما أقضم أنا قضمة من خده، لا أعرف كيف، لكن الاحتمال وارد: مادام أنه قضم

قضمة مني فيمكن لي أن أقضم قضمة منه، آكل ومأكول، مُطْعِمٌ وطعام، هكذا يقول تسلسل الكلام، تسلسل الأفكار: ما دمتَ قد أكلتني أستطيعُ أن آكلكَ، ما دمتَ أنَّكَ قدَّمتَ جزءا من نفسِكَ لي طعامًا فيمكنني أن أقدّم جزءا من نفسي لك طعامًا، هكذا يقول البشر: الدُّنيا سَلَفٌ ودَيْنٌ. أستلفُ منك: أكون مدينا لك. هل يقصد البشر ذلك المعنى من المثل أم أنهم يتجاهلون مبدأ الاحتمالات ويعتمدون على احتمال واحد وهو أنَّ الدين راجع راجع؟

ربما أعجز الآن عن التذكر، وذلك عندما أستطيع أن أتذكَّر شيئا، سأذكر لكم ذلك الجزء الذي حدث، وإلى أن يحدث التذكُّر نلتقي على خير وأدعو لنفسي بمزيد من الحياة وبذاكرة قوية تفَّاحِيَّة.

الراوي

يظنُّ جمال الجزيري أنه يحرِّكُني، ويظن أنه أرسلني إلى مصر برفقة صداه لنجلس في شقته التي قيد التشطيب قليلا، نتابع العمّل ونسرد له ما يجري وما لا يجري وما يمكن أن يجري، وهو لا يدري أن الجريان ربما يقتصر على حركة دائرية في ذات المكان. ربما لهذا السبب ذكرتُ الرواية في مطلع ما أوهمتُه ساعتها أنها قصة أصوات، وطلبتُ منه أن يوقِّع – على مقطع من هذه الافتتاحية الروائية التي كان هو يظن أنها قصصية ساعتَها – بصحَّة التوقيع، أو بصفته شاهدًا على ما يدور في مفتتح الرواية، ربما لأجعله يعترف ضمنيًّا بأنني أنا الأساس، وهو مجرّد مستمع لي: الراوي هو الأصلُ، والكاتبُ يجلس ليغمض عينيه ويفتح جهاز التسجيل بهاتفه ليسجِّل ما ينصتُ إليه، ما يسمعُه، ما يمليه عليه الراوي إذا كان هذا الراوي مشارِكًا في القصة. ساعتَها اتَّفَقَ القُرَّاءُ على أن ينتقل الحدث كليًّا إلى مصر، وعلى أن نترك جمال الجزيري ذاته في غربته، فالحدث كان واعدًا: هناك أصوات كثيرة، هناك أسلوب جديد، هناك فجوات كثيرة مفتوحة، ربما بعد أن سافر القراء أو الرواة أو الذين كانوا في ذلك الفصل الخاص الذي أسماه جمال ساعتها قصة أصوات، بدأتُ أوعز في أذنيه، أو أوسوس له بأن يرسلني أنا إلى مصر، وفي سِرِّي كان الهدف أن ألحق بأولئك القراء والرواة لنكمل مشروعنا، خاصة وأنهم اتفقوا على أن يكون مسرح الأحداث فوق سطح شقة جمال الجزيري الذي تم تشطيبه بالفعل ماعدا الحمَّام.

وكي نقنعه، أو كي أخدعه.. لا، ليس الخداع هو المقصود.. كي أستدرجه للموافقة مثلا قلتُ له:

- سيكون صداك معي، نسافر أنا وصداك ونستكمل ما كان يخطط له القراء، أو على الأقل أتجسَّس عليهم وأعرف ماذا سيفعلون، أو نتابع أحداث القصة أو الرواية عن قُرب.

أسباب كثيرة يمكن الضحك بها على الذقون، يمكنك أن توهم بها الشخص الذي أمامك، أن ترسم له صورة عن ذاته جميلة برّاقة، فتعميه عن مخططك الأساسي. ووافق جمال. وبعد موافقته التقى هو وصديقه الذي يلتقي به كل خميس بعد صلاة المغرب، وسمعتُ صديقه يتحدث عن بيت قديم جدا منذ الستينات ربما، بيت مهجور، أو مجموعة كبيرة من البيوت الصغيرة المتلاصقة في العِزبة، ربما كانت دورًا واحدًا، وربما لم تكتمل، ربما كان معظمها طينيًّا، لكن كل بيت من العائلة يتركها كما هي كنفوذ لنفوذ أو كصراع بقاء، كصراع نفوذ، لا أعرف بالضبط: فكل شخص لا يحتاج للبيت، ولكن مادام فلان له بيت هنا فلابد أن يكون له هو أيضا بيت هنا يطل على الشارع أو على الناصية أو على الغيط أو على مدخل العزبة أو ما شابه. وكان يتكلم عن الحيوانات مثل الثعالب، الثعابين، الخفافيش، البُرص، السحلية، عن الهواء الكاتم، لأن هذه البيوت لا تطلُّ على براح هواءٍ، فأمامها على الجانب الآخر من الطريق أو الشارع أو كذا بيوتٌ مرتفعة، ووراءها من الناحية الأخرى مَصْرَف، ولأول مرة أعرف أن المصرف في الوجه البحري يدل على مكان تصريف أو عبور للبراز من دورات المياة، فما أعرفه في الصعيد أن المصرف هو ترعة صغيرة متفرّعة من ترعة كبيرة تسير وسط الغيطان ليتم فتح منافذ منها على الغيطان لريّها، هذا ما أعرفه عن المصرف، لكنه كان هناك مصرفَ

صَرفٍ صحّيٍّ. وبالتالي لك أن تتخيَّلَ بيوتًا من دورٍ واحد ربما غير مسقوفة. أمامها في الشارع بيوت عالية جدا: عالية بمستوى الريف، ثلاثة أدوار مثلا. وخلفها مصرف صرف صحي ورائحته خانقة، والبيوت ذاتها توحي بالرهبة، بالموت، بالانقطاع، فيبدو من كلامه أنه لم يعش فيها أحد منذ خمسين سنة مثلا. ويذكر ذلك الدكتور الذي هو صديق جمال ولنسمِّه مثلا الدكتور رجيعة، أنه فتح الشباك الذي قد صنعه أبوه عندما كان حيًّا منذ سنوات طويلة وينفتح على الأرض التي يحجزها آخرون على أساس أنها بيوت، ففتح دكتور رجيعة الشباك، وبالرغم من أنه لم يرَهناك سوى حشرات، جاء أصحاب الأرض ليتشاجروا معه:

- كيف تفتح شباكا على أرض البيت؟

- البيتُ غير مسكون، وأبي هو الذي فتح الشباك! ومادام أبي هو الذي صنع شبَّاكا لينفتح على هذه الأرض فأنا أرثُ الشبَّاكَ وأرث الواجهة التي يطلُّ عليها المنظر.

ولم يستطيعوا فعل شيء.

هذا المنظر لم يفارقني.. تصوَّرْ شخصًا مثلا يدخل مكانًا مهجورًا منذ خمسين سنة ليفتح شبَّاكًا.. كيف خطا بأقدامه لأمتار ليصل إلى الشباك ويفتحه على.. هل نسمّيها رَهَبَة؟ رهبة في الصعيد عبارة عن مكان تفتح عليه مجموعة من البيوت كالساحة، لكنني أجدني هنا أستخدم كلمة رَهَبَة على أساس أنها ما تولّد الرَّهْبَةَ في القلوب، شيء أو مكان يولّد الرهبة والخوف والقشعريرة في النفوس: حشرات من جميع الأنواع، بيوت لا يدخلها بشر.

وكان الدكتور رجيعة يفكّر في أن يجعل من خلفية بيته التي بها الشباك حديقةً تعيد الروح إلى المكان، ودفع لأحد أقربائه مالًا كي يشجّر هذا المكان. ولكنه

– كما سمعتُ الدكتور رجيعة – لم يشجِّر شيئا، وأعاد الفلوس منقوصة، لكن يبدو مِن وصفِ المكان أنه خشي أن يبقى في المكان لفترة طويلة أو أن يدخل المكانَ ويضطر كل فترة لريّ الأشجار أو الاعتناء بها أو أي شيء من هذا القبيل.

أرسلني جمال إلى مصر بصحبة صداه، أو هكذا هو الذي يتوهَّم أنه أرسلني، فأنا الذي دفعتُه لأن يرسلني لأتابع القرَّاء والرواة على سطح الشقَّة وأتابع العمّال في الشقة ذاتها وعلى سطحها. صعدتُ إلى السطح ولم أجد أحدًا.. ورطة أو مأزق وضعني فيها/ فيه جمال الجزيري، أين القراء والرواة هؤلاء؟ أعرف أنهم شخصيات في تلك التي كنا نسميها أنا وجمال قصة أصوات، ولكنني كنتُ أرى أنها رواية من البداية، لكنها شخصيات على أية حال، وأنا تركتُ لها الساحة لتروي ما يحلو لها، وأن تشارك في الحدث بجدية، وربما هي التي خَلَقَتْ نوعًا من التجديد في القصة، في فصل الرواية، سمّها ما شئتَ، بأن أدخلتِ النكتة، بأن أدخلت الضحكة، بأن أدخلت السخرية، بأن أدخلتْ امتزاجَ الأصوات ببعضها، بأن نقلت الحدث بعيدًا عن الكآبة أو الثورية الجوفاء، إلى آفاق إنسانية، كأنها هي الراوي أو الرواة، وكانوا يروون بالفعل، وفي المفتتح كان الجميع رواةً وكُتَّابًا.

أمسكتُ بالمنظار. أعرف مَن هو جمال الجزيري جيدا، فأنا أتابع الكثير من أفعاله وأعماله وأقواله، واستخدمني أو لجأ إليَّ كثيرا في كتابة الكثير من القصص والروايات القصيرة، فأعرف أنه من سوهاج، وأنه ربما كان يريد أن يُطِلَّ من سطح شقته نحو الجنوب. أمسكتُ بالمنظار، ولكنني لم ألحظ إلا السماء، فالجنوب مرتفع جغرافيا عن سطح الأرض، وكلما اتجهنا نحو الشمال انخفضت الأرضُ، والصعيد مرتفع، ولم أستطع أن أبصر شيئا، لأنني كنتُ من فوق سطح الشقة في مكان منخفض بالمقارنة بالصعيد، ولذلك لم يكن أمامي إلا أن أحرِّكَ المنظارَ نحو

الشمال، وتلك الأرض التي تكلَّم عنها الدكتور رجيعة في البحيرة على ما أذكر، مع أنني أعرف أن جمال ربما كانت بعض أحداث الروايات تتداخل في ذهنه: رواية مدن بلا نخيل ربما للكاتب السوداني المصري طارق الطيب وربما روايته بيت النخيل، فلا أستطيع التذكر بالضبط، وهي الرواية الأولى منهما، التي كتبت في البداية وتظهر فيها تلك القرية السودانية التي اسمها ودّ النار التي كانت في البداية ودّ النور، وشتّان ما بين النور والنار، أو النور الذي يتحول إلى نار ليحرق قلبك ويجعلك تشك في ذاكرتك ذاتها وفي قدرتك على أن تدرك الأشياء من حولك، نور الثورة، نار الورثة، أهلا بك من جديد في عالمك الافتراضي، الذي ربما لم يكن افتراضيا في البداية، ولكنه صار افتراضيا، نورٌ صارَ نارًا، ونارٌ صارتْ نورًا...

ورواية فساد الأمكنة لصبري موسى أو موسى صبري، فلا أستطيع أن أميز بين اسميهما بالرغم من أنني أدرك أن أحدهما روائي والآخر صحفي. وربما تداخلت أيضا معهما رواية طقوس العبور لجمال الجزيري ذاته، وبعض الروايات القصيرة التي كتبها بعد ثورة يناير، وخاصة رواية... ما اسمها؟ ما اسمها؟ ماذا كتب؟ رواية يوجد بها ذلك الهواء المحروق أيضا، أعرفها جيدا، لا، ليست البطاقات لاتزال في جيبي[١]، رواية يصعد فيها فوق الجبل ويرى الدماء والهواء المحروق وسنة ٢٠١٨ أو ٢٠١٩، ما اسمها؟ ما اسمها[٢]؟ كأنها نَسْيٌ مَنْسِيٌّ.

---

[١] رواية "هروب دائري" رواية قصيرة لجمال الجزيري نشرتْ في مجموعة رواياته القصيرة "شوط أول: ست روايات قصيرة"، دار الأدباء، ٢٠١٨.

[٢] رواية "وقود الحركة أو الموعد الآخر" رواية قصيرة لجمال الجزيري نشرتْ في مجموعة رواياته القصيرة "شوط أول: ست روايات قصيرة"، دار الأدباء، ٢٠١٨.

لا أعرف لماذا تَجَمَّعَتْ كلُّ هذه الأشياء وجعلتْني أسلط المنظار نحو الشمال. لا أعرف المكان بالضبط. لكنني أدرك أنها منطقة أو بيوت يبدو من الشُّوب أو الصهد الشديد أنها هي المنطقة التي كان يتحدث عنها الدكتور رجيعة. والشوب هو الهواء الساخن في عزِّ الظهر. عندما يكون الصهدُ شديدًا تحسُّ بأن هناك شيئا يتحرَّك. هذا هو الشوب. وهو مختلف عن السراب. وكأن الأرض تحرق أشباحها. أو أن الأشباح والأرواح الأخرى تجد في الحرارة الشديدة جوًّا مناسبًا لها لتخرج وتتحرك كما يحلو لها. السرابُ إيهام بالماء. والشوب تأكيد للحرارة. تأكيد للهواء المحروق. تأكيد لحركة مشتعلة تقول لك إن الهواء ذاته يجري هاربًا. وتقول لك بأن أجسادًا هناك أوشكتْ على الاحتراق. أو كأن الروح تتسلل منها وتتجسد هاربة في تيار الهواء. فتراها بعينيك.

الشوب والصهد. رأيتُ في المنظار ذلك الشوبَ. وهو يشبه أيضا الصورة المهتزة في فيلم مثلا. وتبدأ هذه الصورة تصفو قليلا قليلا إلى أن تتضح معالم مَن/ما فيها. بدأتُ برؤية ذلك الشوب. وبدأت صورة الكاميرا أو صورة المنظار تتضح. رأيتُه.. لا أعرف إن كان جالسا أم واقفا أم متَّكِئًا. فلم تكن صورته واضحةً تمامًا. لكنني كراوٍ متمكِّن – وقد قمت بسرد عشرات القصص لجمال الجزيري من قبل وعشرات القصص والروايات لغيره من الكتَّاب – لا بد أن أضفي اتِّسَاقًا ما على ما أنقله. بمعنى أنه لا بد أن يكون ما أنقله منطقيًّا. متجانسًا. مترابطًا. متماسكًا. بشكلٍ أو بآخر. حتى لو كان بشكل رمزي أو غير مباشر أو على سبيل التناص مع أشكال وأحداث ورؤى واندياحات أخرى. مع لاوعي عفيٍّ يستطيع أن يستجمع كل ما يفور في سراديبه ويُخرجَه على السطح ليتشكل في شيء قد لا تستطيع أن تبصره كله من زاوية واحدة. لكنه له حضوره البهي. حضوره الطاغي.

حضوره الذي يلفت الانتباه إلى نفسه ويقول: ها أنا أَتَشَكَّلُ حياةً، ها هي حياتي تجمع حيواتٍ كثيرةً وتَصُبُّها في برزخ يحتضنُها جميعًا، لتأتي الولادة في المجموع وتأتي الولادة على يد القارئ، ولا بد أن يكون كل ذلك مصبوبًا في منظور أو رؤية ما، ولهذا السبب سجَّلتُ نصف ساعة بعد نزولي لمصر وأرسلتُ الملفَّ الصوتي لجمال الجزيري على هذا الأساس، أو جعلتُ صداه يرسله له. الملف الذي بصيغة amr حجمه صغير، ونصف ساعة تعني أن حجمه لن يزيد عن ٢ ميجا إلا قليلا، وأرسلَه له.

رأيتُه ورأيتُ شجرة جافة تمامًا، ويبدو أن الهواء محروق بالفعل، فلم يستطع أن يسقطها، هل هو كان يجلس ويتأملها؟ أم كان يتكئ على جذعها؟ أم كان يقف أمامها مذهولًا؟ ورأيتُ في المنظار أيضا حشرات كثيرة: هل كانت فعلا موجودة؟ أم أنني أوجدتُها لسبب ما استنبطتُه من كلام الدكتور رجيعة عنها؟ لا أعرف. وإن كنتُ أنا شخصيًّا لا أخاف من الحشرات، وإن اقشعرَّ جسمي من بعضها، وكل الحشرات تخاف منها زوجتي. لذلك بعدتُ عن الحشرات معظم التسجيل واكتفيت بالإيحاء في نهاية الفصل بالعيون الزجاجية التي تشير إلى الحشرات وأشياء أخرى، فربما تسمعني زوجتي وأنا أعيد تشغيل المقطع الصوتي بعد رجوعي، ولا أريد أن أخيفها، حتى لو كان هذا الخوف ناتجًا عن صور في ملف يتكلم عن أشياء غير موجودة بشكل مباشر في حيّز المتكلم، فالخوف يأتي أحيانًا عن طريق الإيحاء، عن طريق تشكيل السامع للكلمات تشكيلًا بصريًّا يرسم ما توحي به الكلمات، وربما يبالغ في التصوير لدرجة توليد خوف أكبر مما كانت ستولده الصورة الفعلية، الحقيقية أو الافتراضية. وركّزتُ بصري أو روايتي – ما كنتُ أرويه – عليه هو شخصيًّا.

في البداية تخيَّلتُه على أنه أنا، ربما لأن جمال الجزيري في أحيان كثيرة يُخرج نفسه في هيئة شخصية ويتكلم عنها بضمير الغائب ليراها جَيِّدًا. وكنتُ أراها غائبةً بالنسبة لي، أو على الأقل غير موجودة أمامي مباشَرَةً، أو هي شخصية ليست أنا وليستَ أنتَ. ولكنني في البداية وجدتُني أتكلم عنها بصيغة المتكلم كأنني أصف نفسي، وسرعان ما اكتشفتُ أنني كاذب، فلا يوجد صدق فني في ذلك: أنا واقف فوق سطح عمارة بشارع ١٤أ بحدائق الأهرام بالجيزة، وكل ما حولي يدل على العمران، على البناء، على الامتداد، على الحياة الواعدة أيًّا كانت، على الاتصال بالغير، على الأهرامات التي أراها من فوق الشقة، على طريق الصعيد الذي أراه أيضا، على التوغل نحو الجيزة وفيصل والهرم وميدان الرماية، نحو المدن الجديدة مثل ٦ أكتوبر، نحو الإعلام ومدينة الإنتاج الإعلامي..

هذا ما كنتُ أحس به: شقة جديدة لكاتب أعتزُّ به وأقدِّم له خدمات أحيانًا في قصة أو رواية، هو قاص وروائي وأنا راوٍ، فلابد أن يحتاج إليّ، وفي الوقت ذاته كنتُ أرى على الجانب الآخر من خلال المنظار ما أعرف أو أدركُ أنه لا يوجد، وكأنَّ شيئًا فوق قدرات تسجيلي وعقلي هو الذي أراني ذلك المنظر، فيبدو أحيانًا أنَّ ما نراه يتوقف على مخاوفنا، على تطلعاتنا، على المقارنة بين آمالنا وواقعنا، وما رأيتُه من نافذة التاكسي من المطار حتى هنا وما أرصده من سطح الشقة في الشوارع أسفل العمارة يقول بأنَّ الأملَ تحوَّلَ إلى كابوسٍ، بأن ذلك الطوفان لم يكتسحْ شيئًا ولم يكتسح أحدا سوى أولئك الذين كانوا يركبون في الفلك، وربما لم يكتسحني أنا شخصيًّا إلا لأنني كنتُ خارج مصر، وأنا الآن في المَفْرَمَةِ التي خلّفها ما بعد الطوفان، كأنَّ الوعدَ نذيرٌ، وكأنَّ التطلُّعَاتِ سُدًى... آآآآآآآه يا الله، يا ربّ هوّنْ، يا رب ارحمْ.

كان ذلك الكائن كتلةً عندما رأيتُه لأول مرة: شيء مهزوز. ربما كان معلَّقًا في الهواء أو تحت الشجرة أو في مواجهة الشجرة، وربما كان مجرد بقعة لونية تتحرك هنا وهناك، وكأنه زغللة في عين المنظار، أو عيني أنا، وكانت الشجرة بلا أي ورق، ربما كان اتكاؤها على الحائط بالقرب من ذلك السور الطيني الذي كان يظهر فقط جزءٌ منه في طرفه الذي في نهاية النظرة: امتداد بمعنى أنه يلتصق بأسوار أخرى ولا يوجد مكان يمكن أن يظهر منه، ماذا كان اتكاؤها؟ فلتَتْ منّي الجملةُ، وظلّ مُعَلَّقًا مثلها في الهواء...

أما أمامي في النظرة، فكان المكان يختفي منه جزء، لا أعرف، لا يظهر شيء: هل يطل ذلك على براح؟ هل يطل على سور؟ يتم إغلاق امتداد السور الذي أراه الآن ليصنعَ غرفةً أو بيتًا أو... لا أعرف. لكنني رأيتُ الشجرة، ورأيته هو، ورأيت سورًا طينيًّا، ورأيتُ نافذةً من خشب ربما أوشك على الهلاك تماما تطل على مكان ما وراء السور لا أراه، فكان المنظار كما لو كان ينتقل تدريجيا نحو لقطة قريبة من هذا المشهد دون أن أستطيع أن أستكشف ما خلفه أو ما حوله أو ما أمامه.

لم يكن فوق السور بوتاجاز، فالغاز لم يتم توصيله بعد ولم أستطع أن أستخرج برَّادَ شايٍ من الشقة أسفل السطح لأجهّز لنفسي كوب شاي، فجمال كما قال لي وكما رأيتُ بعيني، كان قد انتقل للتو من شقة قديمة إلى هذه الشقة ولم يستخرج شيئا من الحقائب أو الكراتين أو الصناديق أو شيء يحتوي على محتويات الشقة القديمة، حتى كُتُبه ذاتها لم يستطع أن يستخرج منها الكتب التي يريدها، فتخيَّلتُ في البداية كوبَ شاي في يد ذلك الرجل الذي يظهر في المنظار. أنا أريد أن أشربا شايا، فأجعله هو يُمسك بكوب شاي، فليس لدي أي شيء من مستلزمات

عمل الشاي، وإن تركتُ المنظار وذهبتُ لمقهى لأتناول شايا ربما يختفي ذلك الشخص ولا أجد في المنظار سوى العمارات والفيلل الموجودة في هضبة الأهرام..

أدرتُ ظهري لباب السطح وأنظر نحو الشارع، فرأيته هو أيضا يدير ظهره لي وينظر نحو الشجرة والنافذة. ربما لا أذكر إن كنتُ قد ذكرتُ النافذة من قبل في التسجيل الأول الذي أرسلتُه لجمال، فلقد كنتُ أرى منه حشرات بالفعل، واكتفيتُ بأن رمزتُ للحشرات بالعيون الزجاجية، لأن زوجة جمال أيضا تخاف كثيرا من أي نوع من الحشرات، وربما تسمع التسجيل، فلا تستطيع أن تجلس بالشقة لوحدها عندما يكون جمال بالعمل والأبناء بالمدرسة وتحصل مشكلة كبيرة، في هذه الحالة ستظل في المدرسة بعد أن توصل أبناءها إليها إلى أن يعود جمال من محاضراته الصباحية.

آآآه كان يرتشف الشاي، وأحسُّ برأسي تعلو كأنني أنا الذي أرتشف الشاي فعلا. وبالرغم من أنني انتقلتُ لأن أتكلم عنه بضمير الغائب كنتُ أحسُّ بالتوحُّد معه، كأنني توغلتُ في شيء دون أن أستطيع الخروج منه: ربما كانت لقطة ثابتة لو نظر إليها أي أحد لتركها: رجل يدير ظهرة للكاميرا ويجلس أمام شجرة جافة، وهما الاثنان كأنهما محنَّطَان وبجانبهما نافذة صغيرة إلى حد ما تمتلئ بجميع أنواع الحشرات يفر منها رعبًا أو فزعًا أو لامبالاة أو انشغالا، لكنني بصفتي راويًا تعوَّدتُ أن أدقق في التفاصيل الدالة، أن أصنع من الفسيخ شربااتًا، أن أبصر المعنى الكامن في أي لقطة عابرة، أن أرى حركةً تتشكَّلُ بين مكونات الصورة لتخلق لي قصة كاملة، أن أربط بين ما أرى وبين ما يلد في ذهني فأشكِّل عالَمًا متكاملا من مجموعة عوالم مختلفة، ولذلك وقفتُ بالمنظار أنقل على الهواء سردًا مباشرًا حيًّا حاولتُ أن يكون مترابطًا ومتكاملًا، وربما أحسستُ بنوع من التماهي مع ذلك الذي

يرتدي جلبابًا بلديًا بكُمٍّ واسعٍ ولا أعرف لماذا كان الجلباب زاهيًا بالرغم من أن المكان يقول بأنه هو والشجرة ميّتانِ منذ عشرات السنوات.

أحسستُ بنوع من المغامرة أيضا، فأن تتوقف أمام لوحة ساكنة وتجعل منها رواية كاملة – ذلك في حد ذاته نوع من المغامرة في الكتابة، في التجريب، في التعمُّق في روح الحياة ذاتها، "قُلْ سيروا في الأرض". وها أنا أسير أو يمكنني أن أسير في أرض لوحةٍ في نظرةٍ في مكانٍ قديمٍ مليء بالأشباح، بالحشرات، بالحياة الساكنة، بالاغتراب، مليء بالهواء المحروق، أشياء كثيرة لا يمكن حصرها تتفاعل مع بعضها البعض لتخلق عالَمًا كاملًا.

هل أثقلتُ عليكم؟ أم أنني لم أَقُلْ شيئًا؟ أم أنني سأبتدئ دوري؟ أي دور؟ أنا ابتدأتُ دوري بالفعل، أنا الذي ابتدأتُ الروايةَ أصلا في فصلها الأول وفي فصلها الثاني عندما نقلتُ النصف ساعة. يصرُّ جمال طبعًا على أن يعُطي لكل شخص صوتَه، وترك الرجل يتكلم لمدة ساعة وترك الشجرة تتكلم عن نفسها لمدة ٥٠ دقيقة تقريبًا، بالرغم من أن جمال من عادته أن يعطي فرصًا متساوية في الطول والمجال أمام الشخصيات المختلفة. ربما كان هو متعَبًا، وربما كانت الشخصية الأخرى – الشجرة أو الثمرة أو التفاحة – هي التي كانت متعَبة فلم تكمل ساعتها.

يُفتَرض سرديًّا أنني شخصية الآن ولم يعطني أحد هذه المعلومات كي أقولها لكم، ولكنني يُفتَرَض أنني صدى حقيقي لجمال الجزيري، وليس ذلك الصدى الذي كان معي على السطح وكان يجلس فقط ليدخن الشيشة ويعلِّق من آن لآخر على ما أقوله أو ما أنقله له، وربما لهذا فصلٌ مستقل، فلقدْ أَتْعَبَنِي كثيرًا ولم نكن على انسجام مع بعضنا البعض، وهددتُه ساعتها أن أبلِّغ جمال الجزيري ذاته بالموضوع، فقال لي ذلك الصدى:

- بلّغه ولا يهمُّني أي شيء. هو لا يستطيع أن يتحكم في صداه، وأنا صداه، أو هكذا أرسلني على أنه صداه، وصدى الإنسان لا ينتمي إليه، ولذلك ليس له سلطة عليَّ.

هكذا قال، وارتبكتُ ساعتها أو احترتُ، فأحسستُ أن كلامه سيدخلني في متاهة التأمل الذي سيخرجني من التعمّق في اللوحة، أو فيما ينقله لي المنظار. فلم أناقشه ساعتها ولم أبلّغْ جمال بشيء.

رأيتُ الرجل ليس ثابتًا على وضع محدد، معالم المكان محدودة، شجرة ربما هي التي تخيَّلتُ أنها كرسيّ، أو ربما هي التي رأيتُ الكرسي يتعلق بها، ورجل ونافذة. أحسستُ بأنه يهزّ رأسَه، لكنني لم أتبين ساعتها أن رأسه ذاتها يخرج منها ذلك الشُّوب أو الصهد، وكأنها محترقة أو كانت محترقة أو بدأتْ في الاحتراق كأن الحياة تدبّ فيها. تخيَّلْ أن تدب فيك الحياة وسط أرضٍ قاحلةٍ تمامًا، لا توجد فيها نسمة هواء سوى الهواء المحروق، وإذا هبَّتْ نسمة هواء تهبُّ محمَّلة بكل الروائح القذرة الناتجة من المصرف.

أنا شخصيًّا كراوٍ لم أستطع أن أتخيَّل رائحة المصرف لأنني لم أرَه من قبل، أعرف البَيَّارة التي توجد لحمَّام واحد في بيت مثلا. وبما أني مرافق لجمال الجزيري، كانت في موسم الحجّ بالمذدلفة ومِنَى رائحة شبيهة بالرغم من أن الحمَّامات تَصْرِف في المواسير أساسًا، وتنبعثُ الرائحةُ نظرًا لكثرة الضغط ووجود ملايين الحجاج. لكن هذا المصرف الذي كله عبارة عن فضلات آدمية، لم أستطع أن أتخيَّل رائحته، ولكنني خمَّنتُ أنها رائحة كريهة جدا، خاصة وأنها هي الرائحة الوحيدة التي تهبُّ على هذا المكان الخالي من الهواء، ليست تلك الرائحة العَطِنَة نوعا ما التي تشمها في المقابر، وخصوصا إذا كانت مقابر مغلقة إلى حد ما، أو.. لا أذكر إن كانت قلعة

صلاح الدين بها مقابر أم لا، لكنني كنتُ أشمُّ هذه الرائحة في القلعة. وفي المقابر التي في نهايتها السيدة نفيسة...

رائحة مع هواء محروق مع شجرة جافة مع بيوت طينية مع حشرات.. يمكنها أن تولّد عشرات التأملات، عشرات القصص الفرعية أو حتى القصص الرئيسية، أو عشرات القصص الطينية، وكأن الطين هو الغائب الذي يتكلم عن حنينه، عن ضياعه، عن تلاشيه، وسط هذا الجفاف القاحل والبيئة المخيفة القابضة للنفس التي تجلب الغمّ والهمّ والرهبة والخوف والاشمئزاز والغضب الناتج عن الرغبة في الإعمار..

كان يتحرك، أو أن الحياة بدأت تدبّ فيه من جديد، وكأنه كان مَيِّتًا أو مُحَنَّطًا أو ذا حياةٍ مؤجَّلَةٍ، وكانت الشجرة أيضا قد بدأت في الحركة بشكل أو بآخر، ولكن حركتها كانت بطيئة جدا ولا يستطيع أن يلتفت لها إلا مَنْ يصبُّ تركيزَه عليهما، وعلى الدوام كانت الحشرات دائمة الحركة، حشرات تخرج، حشرات تدخل، نفس النوع، أنواع مختلفة، والغريب أنهم كانوا في ألفة شديدة مع بعضهم البعض، ويبدو أن كل حشرة تركتْ تذكارها على السور: أنواع من الوشم ربما، أنواع من الصور، أنواع من... لا أعرف بالضبط، وربما لهذا السبب اختصرتُ موضوع الحشرات كله في العيون الزجاجية المثبَّتة على الحائط الطيني.

هذا كل ما أستطيع أن أقوله عن مبتدأ الحكاية، وأعرف أن ذلك قد يُغضب جمال الجزيري ويجعله يُفسح المجال لرواة آخرين تماما. أنا بالفعل لا أعرف كثيرا، حاولتُ أن أخلق قصة جيدة أو فصلا مكتملا من رواية في النصف ساعة الذي أرسلتُه له، وها أنا أحاول أن أفسِّر خلفية أو أجواءَ تلك الثلاثين دقيقة، لكنني ليس لديّ ذلك التأمل أو تلك القدرة على التأمل التي لدى جمال، أو بالأحرى ليست

مسألة تأمل، ولكن ذلك الذي كان يجلس بجانبي ويدخن الشيشة على الدوام وينفث الدخان نحوي، وفوق السطح الهواء القوي - فسطح الشقة أعلى من أي عمارة مواجهة وبالتالي المجال مفتوح لانطلاق الهواء - كان ينفثه تجاهي، لكن الهواء المنطلق أو المتحرر أو المليء بنسمة باردة جميلة ونقاء كأنَّه تَجَاوَزَ كُلَّ دخانِ المدينةِ وكلَّ أتربتها يجعل الدخان يطير بعيدًا عني ولا يصل إليّ، فذلك الذي يجلس ويدخن الشيشة الذي هو صدى جمال الجزيري كان عابثًا إلى حدٍّ كبيرٍ وكأنه يدرك أن زيارته لمصر ستكون قصيرة جدا، وبالتالي حاول أن يستمتع بالهواء، يستمتع بالدخان، يستمتع باستحضار الذكريات فوق سطح الشقة، أو ينقل إليه تلك الذكريات التي عاشها في الشقة السابقة التي باعها جمال كي يكمل تشطيبَ هذه الشقة، ينقل ذكرياته في تلك الشقة إلى سطح هذه الشقة الجديدة، وكأنه سيتركها عن عَمْدٍ قبل أن يسافر من جديد لتؤنسَ هذه الذكرياتُ الشقة الجديدة أو تكون حارسة عليها أو تُؤمِّنها ضد السرقة، ضد الغرباء، ضد ما قد ينزع الذكريات أو يقتلعها، خاصة وأنه كان يدرك أن الذكريات التي كانت بالشقة القديمة تعاني الآن من جبروت السكَّان الجدد الذين يريدون أن يقوموا بمحوها تماما، وها هو يستحضرها ليحرِّرَها أوَّلًا من جبروت أولئك السكان الجدد ولِيُثْبِتَها في بيتها الجديد كأنها هي التي انتقلتْ أيضًا من تلقاء نفسها. هو صدى على أية حال، ويهتم بما يخصه، بالذكريات والأثر، بالامتدادات والنظر، بالاسترجاع والاحتواء.

كانت تعليقاته من آن لآخر، سخريته، ضحكته، تجعلني أفقد التركيز بالتدريج، أو تصيبني بالإحباط، إذ قال لي ضاحكًا وساخرًا في آن:

- يا ابني، حتى لو قمتَ بابتعاث آلاف الصور، هذه البلد لن ينفع معها شيء! أتظن أنني عابث؟ نحن الأصداء أرواحٌ معذَّبَةٌ، وسأقطعُ يدي إن لم يرصد

جمال الجزيري هذه الأرواح المعذَّبة فوق السطح أو فوق الجبل في رواية قادمة! هي أرضٌ طاردةٌ للأرواح، طاردةٌ للأنفاس، طاردة للرواة الذين يروون بطريقة مختلفة عما تريد أن ترسّخه زعامات الصهد والشُّوب والصحراء الحارقة...

لم أستطع أن أكمل ساعتها ما رأيتُه على أنه تصوير بالكلمات، بمعنى أنني أرى بالمنظار، ثم أنقل ما أراه كسَرْدٍ على الهواء، ويتم أثناء الكلام تسجيلٌ سرديٌّ على أنه الصورة كاملة، صورة غير هذه الصورة المباشرة التي يتكلم عنها الصدى، صحيحٌ أنا راوٍ، لكنني أريد الحفاظ على رقبتي أيضا، ما علاقة الرقبة بالرقيب هههههههههههه، سبحانه، هو الرقيب الأوحد، وما عداه رقباء على هواهم، وهواهم سيحترق في يوم ما، لا أريد أن أشغل بالي بهم، سأعود إلى ما كنتُ أقوله...

صورةٌ ربما يتم التلاعب بها قليلا عندما يتم تحويل الملف الصوتي إلى ملف وورد على الكمبيوتر، فهناك طبعًا إضافة، حذف، تعديل، توسيع، تضييق، تكثيف، وما إلى ذلك من عمليات نعرفها جميعا، لأن التركيز هنا على التفاصيل في مقطع أو فصل معين، لكن عندما تكون الفصول كلها موجودة بجوار بعضها البعض، فلا بد أن تسلط هذه الفصول الضوء على بعضها البعض بشكل أو بآخر، حتى لو كان هذا الضوء ضوءًا عكسيًّا: بمعنى أن يلعب فصل ما ضد الدلالات التي يلعب عليها فصل آخر، لكن المجال مفتوح على أية حال، مفتوح نعم، لكن صدى جمال الجزيري آنذاك لم يترك المجال مفتوحًا، وحوَّلَه نحو تأويل محدَّد، واضطرَّني لأن أُنهي ذلك الفصل عند تلك النقطة التي عبَّرتُ فيها عن حيرتي، لأنني لا أريد أن أفرض منظورا مَسْبَقًا على ما أرى، حتى وإن كنتُ أبصرُ هذا المنظور متجسِّدًا فيه: كيف أُنهي أو أُغلق شيئًا مفتوحًا أصلًا؟! ودعوتُ ساعتها

القراء أو الرواة المختلفين إلى أن يكملوا الفصل أو القصة ساعتها، لا أذكر إن كنت قد استعملتُ كلمة "القصة" أم "الفصل".

في الغالب استعملتُ القصة، وكان ذلك في الغالب لأنني كنتُ أريد أن أتخلص من جمال الجزيري، وأقول له:

- هذه الثلاثون دقيقة هي خلاصة الرحلة إلى مصر.

لكنني كنتُ أدرك داخلي تشويش صدى جمال الجزيري ذاته، وأدركُ أنَّ رحابَةَ المشهدِ أرهقتْني كثيرًا وأرى فيها إمكاناتٍ كثيرةً لا أستطيع التركيز معها. فلقد كنتُ أيضا أريد أن أدخّن الشيشة، وكنتُ أفكر في أن أرسل صدى جمال ذاته ليشتري لنا شايا من أي محلٍّ بالأسفل، ولا أعرف إن كانت هناك مقاهٍ قريبة في هذه المدينة الجديدة أم لا. لذلك سأتوقف هنا ولا أعرف إن كنتُ سأعود أم لا. فلم أشترِ الطلباتِ بعد ولم أنزل إلى ميدان الجيزة حتى الآن، ولا أعرف نوع الرواة الذين سيفسح لهم جمال الجزيري المجال هنا في هذه الرواية. لا أعرف إن كانت ستتولد لديَّ تفاصيلُ أخرى أم لا. لا أعرف إن كان لديّ الوقت أساسًا لأَتَتَبَّعَ مسارَ الشخصياتِ أو أغمضَ عينيّ وأراهم في مكان ما أو في نفس المكان أم لا. ولذلك سأستودعكم الله ونلتقي على خير، سواء أكان اللقاء في هذه الرواية أم في رواية أخرى.

الهواء المحروق

هل كنتُ أحلمُ؟ أذكرُ أنَّ ثمارًا جافَّةً صلبةً كانت تريد أن تتعرَّف على أسناني، ولهذا وصفتُ لكم من قبل جزءا من هذا اللقاء: أنْ تحاولُ الأسنانُ أن تتذكَّرَ تاريخَها، أن تحاول تلك الثمرة الجافة التي لا أذكر ما كان نوعها أو صنفها أو جنسها أن تلتحمَ بأسناني، لكنني تنبَّهتُ على نظرة رُعْبٍ في عيون تفاحة متورّدةٍ وغصنٍ صغير أخضر وسط شجرة جافة جرداء.

مددتُ يدي نحوها، ربما ترحيبًا، ربما استغرابًا، ربما لأنني لم أصدِّقْ أنَّ هناك حياةً بجانبي قد تشكَّلتْ. فما أذكره امتداد طويل من جسد متحجّر وروح تائهة في بلاد الله، لا تعرف لها مَوْطِنًا، ولا تعرف كيف تعود إلى جسدها، وكأن الحجر يقف حاجزَ صدٍّ أمام التحام الروح بجسدها، حتى لو كان هذا الالتحام التحامًا حَجَرِيًّا.

مددتُ يدي ترحيبًا، اشتياقاً، تعارُفًا، تعبيرًا عن اللهفة، عن الفرحة، عن الأُنْسِ: أن تجد أحدًا بجانبك في هذه الصحراء اللانهائية حدثٌ بالفعلِ يوجبُ الاحتفالَ، يوجب الإحساسَ بالطَّرَبِ، بالأُنسِ، بالمودة، بالشُّكر، ولهذا مددتُ يدي. لكنني رأيتُ نظرة رعب في عينها، فالعين الأخرى كانت مغمضة، ولا أدري لماذا، ظننتُ أن إحدى عينيها عمياء وتبصر بعين واحدة فقط، وظننتُ أنها تحس بالرعب لأنها اكتشفت أنني رأيتُ عينَها العمياءَ، مع أنني عندما نظرتُ لم أبصر في البداية سوى الخدود الحمراء والغصن الأخضر والتباين بين الحياة وبين... بين ماذا؟ هل الجَّرَادَة اسمٌ من جرداء، بين الحياة والجفاف، بين الحياة والجَّرَادَةِ، بين التَّوَرُّدِ واللون الأبيض الـ... ماذا نسميه لون الخشب؟ ولون الخشب المُتْرِبِ الذي قد تجده

في شقٍ هنا، آثار سوسة هناك، ولا تعرف كيف تحتمل السوسة هذه الحرارة وسط الصحراء!

مددتُ يدي أكثر كي أهدّئها، كي أخفف من إحساسها باكتشافي عماها، كي أقول لها: لا تقلقي، أنا هنا بجانبكِ، فنحن وحيدان: تفاحة ورجلٌ تحرّك من الحجر، أو حَجَرٌ صار رجلا، أو جَسَدٌ متحجّرٌ عادت له روحه.

لكنها ازدادت خوفًا، ازدادت رعبًا، ربما لأنني لم أفصح عما كنتُ أودُّ أن أقوله لها، فَرَمَتْ نفسَها بسرعة نحو فمي الذي فاجأني وقبّلها، وسرعان ما تراجعتْ، وكأنها تحاول أن تتسلق الأغصان الجافة لتبتعد عني. هل أنا الذي ظللتُ عشرات السنوات أحس بالخوف، بالرهبة، بالرعب، وتحس روحي بالاغتراب والتشتت والشتات، هل أكون سببا في كل هذا الرعب؟ هل عدم كلامي هو الذي تسبب في هذا الرعب؟ هل اللغة عندما لا تخرج في حينها تصير لعنة، تصير مؤامرة، تصير تواطؤًا، تصير فشلا في التواصل وتغلق أبواب التعرُّفِ والتعارف والمعرفة؟ ها أنا أذكر كلاما لم أقله من قبل – ولا أذكر أين ومتى – أضاعني لسنوات، غرّبني عن ذاتي وغرّب ذاتًا أخرى عن ذاتها وعنّي، وحتى عندما يخرج الكلام، فلا نضمن تفسيره وفقا للمقصود منه، فأذكر أيضا في السياق نفسه كلاما قيل لم أفهمه لأنني تمسكتُ بظاهر كلام سابق من نفس الشخصية، ومنعني تمسُّكي من إدراك أنها تعتذر لي بطريقة غير مباشرة، ولم توضّح هي كلامها بعد ذلك حتى تتأكد من وصول اعتذارها، فَضِعْنَا سويًا في جحيم الكبرياء، في جحيم عدم التأكيد على معنى الرسالة، معنى الكلام، وسخرتْ منّا اللغة بعدها، لكننا أدركنا – كلٌّ على حدةٍ – هذه السخرية بعد فوات الأوان، بعد الولوج في التيه الذي لا مخرج منه إلا مع أشخاص آخرين، وها هي التفاحة تعيدني إلى نفس الطريق، هل هي نفسها بوجه

آخر، بشكل غير مباشر؟ أم أنني أقوم بإسقاط ما كان على ما يكون، ومع ذلك ضاعت الرسالة مرة أخرى، فيبدو أن توجُّساتِنا السَّابقةَ تقيِّدُنا بقيودٍ لا نراها، ولم أفصح لها عن كلامي، ولا أدري لماذا...

يبدو أنَّ هناك حروفًا غائبةً بيننا، لم يكن لحركة يدي نفس المعنى الذي كان في عينها، وساعتها لم أفكّر حتى في أن أُقَبِّلَ التفَّاحةَ، ولكنها رمتْ نفسها نحو فمي وتحركتْ أسناني رغمًا عني، وكأن أسناني تريد أن تكتسب لغةً، أن تستعيد حياةً، أن تنتقل من الحالة الحجريَّةِ هي الأخرى إلى الحياة، وكأنها لا تمتُّ لي بِصِلَةٍ، فهي تصرّفتْ رغمًا عني، كأنَّها أسنانُ أحدٍ غيري، أو كأنَّ لغتَها لا تتقاطعُ مع لغتي...

هذا مشهد، ولا أعرف كيف تَرَاوَحَ مشهدان: مشهد وجودي بجانب الشجرة هنا على الطريق الذي انقطع كما قلتُ من قبل، كأنه مبدأُ العدمِ وتلك الرمال الممتدة، ومشهد وجودي بين بيوت من طمي مهجورة هي الأخرى منذ عشرات السنوات، والشجرة أيضا أمامي، ولكنها موجودة في زاوية ما لم يلاحظها ذلك الراوي الذي كان يرقُبُنا عندما كان يراني معلَّقًا في الهواء، لم يلاحظها ولاحظني أنا، ولا أعرف كيف اختفى جدار الحجرة الأمامي وظَنَّ الراوي أنني في رَهَبَةٍ أو ساحة بين بيوتٍ ريفية.

نعم هي بيوت ريفية متجاورة، ليستْ بيوتًا، وإنما أكواخ واطئة مسقوفة هي الأخرى بطمي فوق بُوصٍ أو خشبٍ، لا أدري، لكن الغرفة أو البيت الذي كنتُ فيه لم يكن له سقف، وربما لهذا السبب رآنا الراوي. عدم وجود السقف نقمة، ولكنه صار نعمة على يد ذلك الراوي الذي ما إن رآنا والتقتْ عيناه بمجال وجودنا حتى بدأت الحياة تدبُّ فيّ. تخيَّل أنك لمدة أربعين سنة مثلا لا تسمع أذنُك سوى آهات

ذكريات رحلتْ مع أصحابها، أصواتِ حشراتٍ تلعب: الأبراص والسحالي والحيَّات كأنها تعزف موسيقى جنائزية وتغني كأنها تخاطبني وتخاطب تلك الشجرة:

- ما الذي جاء بكما إلى هنا؟ هل كنتما هنا قبل أن نجيء نحن وضللتما طريق الخروج؟ هل تَجَمَّدْتُما هنا في مكانكما عندما أحسستما بالفقد، برحيل الجميع، وكأن هذه الديار لم يكن يسكنها أحد؟

ولماذا يتخيَّل ذلك الراوي أننا في محافظة البحيرة مثلا هنا وأنا أظن أنني غرب أسوان حيث الصحراء القاحلة التي لا توجد بها ذرة ماء، فقط الشُّوب والصَّهْد والهواء المحروق، وكأن الأماكن عبثٌ! ومن أين جاء هذا الظن وهذا المكان الذي أظن نفسي فيه رمال وصحراء قاحلة ويُفتَرض أن تكون البيوت حجرية، وها أنا أرى نفسي في ثلاثة أماكن: في صحراء غير صحراء أسوان ممتدة وأنا والشجرة في مكان ما عند نقطة انقطاع طريق ما، ربما كنتُ أسير عليها إلى أن وصلتُ إلى هذه الشجرة. وفي مكان آخر يتخيَّلُنا فيه الراوي، وهو ذلك المكان المهجور في محافظة البحيرة الذي ربما كان مسكونا منذ أربعين أو خمسين سنة.

وذلك المكان الذي في أسوان، ولا أعرف ما علاقة البيوت الطينية بالمكان، وكأنَّ أهلَها كانوا يسكنون في منطقة بها طمي وطين، وعندما رَحَلوا أو رُحِّلوا عنها نقلوا طميَهم وطينَهم معهم، وبعدما بنوها اكتشفوا أن الطمي فَقَدَ روحَه وأنهم بدأوا يفقدون أرواحهم الواحد تلو الآخر، ففرُّوا هربًا من المكان، وظللتُ أنا ها هنا متشبثًا به. ووفقًا لهذا التصور، يبدو أنهم اقتلعوا الأشجار أيضًا، وظلتْ هذه الشجرة متشبثة بالمكان، متشبثة بي، تشجِّعُني على البقاء.

هل التمسك بالجذور قد يوصل الإنسان إلى الموت؟ إلى انعدام الذاكرة؟ إلى تحوله إلى هواء محروق؟ إلى السكون في مكان سنوات وسنوات كأنه لوحة مرسومة

بالحجر خارج إطار الزمن؟! وأين ذهبتْ تلك الأرواح التي ظنَّتْ أنها نجتْ من هنا؟ هل عَجَزَ الطمي الذي نقلتْه إلى هنا وفَقَدَ روحَه لتجد أنفسها غارقة في وحلٍ، فتموت وتتعفن سريعًا دون أن يحفظها صخرٌ أو ينالها جفافٌ يحفظها ويجمّدها في آن، وكأن الحفظ تحنيطٌ، وكأن التحنيطَ ذكرى متجددة؟!! حفظٌ يوقفُ النموَّ، حفظٌ يجفِّف الجسد من روحه، وكأن الروح هي الماء وهي الحياة، وعندما تخرج لا يصير في الجسد ما قد يفسد، فيتحول إلى حجرٍ. هل هو حجرٌ أم طميٌ؟ وماذا عن الذين ماتوا في الوحل؟ وماذا عن الذين ماتوا في مواجهات؟ وماذا عن الذين ماتوا في بيوت طينية بصحراء لا تعرف الطين ولا الطمي؟ وماذا عنّي الآن؟ وكيف أتحرك لأبحث عن تلك الروح؟ هل هي فيّ الآن؟ أم أنها ما زالتْ في الشتات، ما زالتْ متشرِّدَةً تقف أمام تلك اللوحة التي تجسد الهواء المحروق وتتذكّرني؟ تتذكر صهدَ الصحراء، الهواءَ الذي يجافي الصدرَ، وكأنَّه ماءُ نارٍ أو جمرٌ أو أيُّ شيءٍ من هذا القبيل الحارق.

أين ذهبتْ هذه التفاحة؟ أم أنني عندما بدأتُ في حكي ما حدث أدرتُ لها ظهري لأتوغل في الصحراء بعيدًا عنها؟ لا أستطيع أن أحدِّدَ شيئًا، لكنني أحسُّ الآن بأنَّ شيئًا مفقودٌ، ماذا كنتُ أفعل قبل هذه السنوات؟ ماذا كنتُ طوال تلك السنوات؟ كل ما فعلتُه حتى الآن أنني أخمّنُ، مجرد احتمالات، لا يقين لديّ، ولا خطوة أستطيع أن أخطوها وأنا واثقٌ بها أو أدركُ معناها، وأين أبحث عنّي؟ الأرض امتدادٌ، ولكن بما أنّ انكشافَ سقفِ الغرفةِ أو البيتِ الطينيِّ هو الذي قاد ذلك الراوي إلينا وجَعَلَهُ يُبْصِرنا لتدبَّ فينا الحياة، ربما يكون الشتاتُ أيضًا بكل اتِّساعه وانفتاحه أملًا أو باعثًا على الأمل في أن يلتقطني ذلك الراوي أو أن آخذ على الأقل منظاره وأبحث عنّي لأراني في مكان ما.

التفاحة

عبيط ذلك الذي لا أدري اسمه! يظن أن التقاط منظار الراوي لنا هو الذي بعث فينا الحياة. أنا شخصيًّا – كما عرفتُ – لم أظهر في منظار ذلك الرجل أو ذلك الراوي، الرجل الذي بجانبي هو الذي ظهر وهو الذي دَبَّتْ فيه الحياة. أنا لم تدب فيّ الحياة لأنَّ أحدًا أَبْصَرَني، وإنما بدأتُ أشعرُ بأنني أفتحُ عينيّ، وكأنني عدتُ للوعي عندما رأيتُ حياةً تتشكَّلُ أمامي، رأيتُ ذلك الرجل وقد بدأت الحياة تدبُّ فيه، وكأنَّ الحياةَ شعورٌ قد ينتقل إلى الآخرين، كأنَّ الكائنات هي التي تخلق الحياة فيما بينها، بتواصلها، بإحساسها بالحياة الذي ينعكس على خارجها فينتقل إلى الآخرين، وهكذا.

بدأتُ أحس بحركة داخلي عندما رأيتُه يتحرك. كان يتشكّل كأنه لم يكن من قبل سوى كومةٍ حجريَّةٍ أو كومةِ لحمٍ تحنَّطتْ أو تجمّدتْ، وها هي تدب فيها الحياة لتتشكل عظامُه وفقراتُه وأطرافُه، كانت كل حركة فيه تولِّدُ داخلي حركة، وتورَّدَ خدي عندما رأيتُ ورقة تبرزُ في الغصن، كأن لحياتي امتدادًا بدأ ينتشر، ولو بشكل بطيء، على الشجرة، إحساس فظيع أن تظلي لسنوات لا تعرفين عددها وسط عائلة كاملة جرداء، فلا غصني ولا أي غصن كانت به ملامح حياة.

وظهرتُ أنا هكذا تفاحةً، لكن الشجرة ذاتها متنوعة، وكأن كل غصن فيها ينتمي لشجرة ما، وتوحَّدوا جميعا في شبه مجتمع من تلك المجتمعات التي يتكلم عنها البشر، وشكّلوا هذا التنوع. وأحسُّ الآن بأنَّ حركةً ما تسري في الشحرة كلها، كأن تشكُّلي أو عودتي للحياة بهذا التألق فتحتْ شهيَّةَ الأغصانِ والثِّمارِ الأخرى على

الحياة. ها أنا أتذكَّرُ الثمارَ، كيف تجتمعُ هكذا؟ لا أدري. تفاح، تين، زيتون، ليمون، بلحٌ، عنبٌ، رمانٌ، أشكالٌ كثيرة، جافة نعم أمامي الآن، لكنني أحس بحركة في الشجرة ككل، وأحس بأن حياتي ستنعكس على كل هذه الفواكه والثمار بشكل أو بآخر، فأنا واثقة لو أنني أغمضتُ عينيّ سأفتحهما بعد لحظاتِ تخيُّلٍ لأرى ثمارًا تبتسم لي.

ظنَّ ذلك الرجل الذي لا أعرف اسمه أنني تراجعتُ نحو الأغصان أو تسلقتُ الأغصانَ هربًا منه، وأنني قذفتُ بنفسي نحوه كي أتخلَّصَ منه، كي يقبِّلَني إذا كان يشاء ذلك أو يقضمني ويتركني في حالي. ربما هذا سبب، وربما كان السبب الآخر أنني أشفقتُ عليه، فهو يريد طعامًا وقطراتِ ماءٍ، وهذا الجفاف القاحل حولنا سيجعله يعود إلى مماته مرة أخرى، لذلك ضحَّيتُ بجزء يسيرٍ منّي كي لا أحْبَطَ أنا الأخرى بالرجوع إلى مماته، كأنَّ هناك ارتباطًا وثيقًا بيننا: إذا عاد هو إلى مماته سأعود أنا، ولكنني عندما أحسستُ بحركة خافتة في الشجرة رميتُ بنفسي وبغصني نحو الأغصان الجافة لأتحسَّسَ، أتشمَّمَ، أرى إن كانت هذه الحركة داخلي فقط أم أنها موجودة بالفعل في الشجرة.

لم تكن الحركة ظاهرة، لكنَّ الشعورَ كان يتزايد داخلي بأنها حركة لا رجعةَ فيها. أنْ تحسَّ بالتواصل مع كل هذه الأغصان التي من المفترض أنها شجرات منفصلة ولكنها تلتقي هنا في هذه الشجرة التي أَلْتَقِي بهم من خلالها أيضًا! أحسستُ بأن كل الثمار بدأتْ تأخذ ملامحها، وإن كانت هذه الملامح ما زالتْ مقترنةً بالجفاف، لكنَّ الطَّبَقَةَ التُّرابيَّةَ على الأقل بدأتْ تتلاشى وكأنها تحترق في هذا الصهد الجاف أيضا، كما قال لي ذلك الذي لا أعرف اسمه عندما قال:

- غيابُ سقفِ تلك الغرفة كان سببًا في أن يلتقطَنا ذلك المنظارُ.

وبالرغم من أنني قلتُ لكِ أو لكُنَّ منذ قليل إنني لم أكن بالصورة، ولم يسقط عليّ منظارٌ، ولا أؤمن بأن سقوط المنظار عليّ هو الذي بعث فيّ الحياة، فإنني قلتُ لكُنّ أيضا إنني عندما رأيتُ الحياة تدبُّ في ذلك الرجل أحسستُ بتحوُّلٍ في داخلي، وكأنَّ كلَّ السُّكونِ الذي كنتُ فيه بدأ يفكِّرُ في الرحيل.

ماذا كنتُ أقول؟ هل ذاكرتي أنا أيضا متأرجحةٌ؟ أحيانًا أحسّ بأنني في كامل حضوري وتألُّقِي، وأحيانا تتلاشى الكلمات كأنني بلا ذاكرة، وكأنني لا أعرف شيئًا! هل هناك قلق داخلي من أن تكون الحركة في الشجرة مجرد وهمٍ في خيالي؟ لكنني فتحتُ عينًا وأغمضتُ الأخرى لأنصتَ إلى صوتي الداخلي، لأنصتَ إلى روح الشجرة، ووجدتُ روحها متقدةً، ولكن يبدو أنَّ شيئًا ما يعوق حركتَها وانطلاقَها إلى باقي الأغصان، كأنَّ حركتَها مخنوقةٌ أو مُعَاقَةٌ، معاقة بمعنى أنَّ هناك شيئًا خارجيًّا يعوقها عن الانطلاق، لماذا أشرح المعنى هكذا؟ هل هناك إعاقة داخلية بمعنى أنَّ هناك شيئًا داخليًّا أعاقني مثلا عن أن أبثّ الحياةَ في الثماروالفواكه حولي؟ أم أنَّ هناك شيئًا داخليًّا يمنع هذه الثماروالفواكه أيضًا من أن تلتقطَ الحياةَ منِّي، وكأنَّ حياتي ناقصة لا تستطيع أن تمتدَّ إلى خارجي؟ لماذا إذنْ كانت الحياة التي دبَّتْ في ذلك الرجل تنتقل إليّ، وكأن رؤيتي لها صارت قناة تنقل لي الحياة؟ وكان الرجل موجودًا منذ قليل، فلماذا لم يحدث ذلك التواصل بينه وبين الفواكه والثمار الأخرى؟ ألم يرونه مثلي؟ ألم يَحْسِسْن بالرغبة في الحياة، بالرغبة في العودة إلى الذاكرة، بالرغبة في الالتحام بين ما كان منسيًّا أو حاضرًا وبين ما يَمْثُلُ أمام النظر وبين نظرةٍ للمستقبَلِ لا أعرف إلى أين ستوصلني؟ أم أنّ هناك شيئا لا أعرفه أو لا أذكره يربطني بذلك الرجل؟ فلا بدَّ أنَّ ضياعَ الذاكرة هذا لغزٌ، لا بدَّ أنَّه يخفي عنِّي أشياء وعن نفسه، لا بد أن هناك ما يربطنا، وإلا كانتْ نظرتُه قدْ بَثَّتِ الحياةَ في باقي

الثمار والفواكه! وكون أنَّ نظرتَه أعادتْ لي حياتي أنا فقط يوحي بأن هناك ما يربطنا، بأن ذاكرتينا بينهما قناة ما تشكَّلَتْ في وقت ما لا أعرف عنه شيئًا! فظيعةٌ هي الذاكرة عندما تتجبّر هكذا! كأنها في التيه، أو أنها تضعنا في التيه، هل تضعنا أم تُدخلنا أم تعتقلنا؟ ولماذا أذكر الاعتقال الآن؟ هل له دلالة ما؟ هل هذه الصحراء معتَقَلٌ؟ هل هذا الصهد تعذيب؟ هل هذه الذاكرة شبه الضائعة صعقةٌ كهربائيَّةٌ؟ ها أنا أَذْكُرُ مفرداتٍ وأدواتٍ، ولماذا تُخرِجِ الذاكرة هذه الأدوات والأماكن الآن؟ هل لها مكانة كبيرة في الذاكرة بحيث تطغى على علاقتي بذلك الرجل؟ وما مصيرنا المشتَرَك؟ هل هذا الاشتراك في الماضي أم في حالتنا هذه أم في المستقبل؟ آآآآه عندما تحسُّ التفاحة بالعجز وتدرك أنَّ كثيرًا من ألفاظِها وحروفِها ضائعةٌ!!

أغبطه ذلك الرجل، فهو ليس مقيَّدًا بالأرض، ليس مقيَّدًا بتربةٍ، يستطيع أن يتحرك كما يحلو له، يستطيع أن يغادرني الآن بلا رجعة، لكنني إن تحرَّكتُ وراءه ستتلاشى الحركةُ التي أكاد أسمعُها عاليةً نابضةً في الشجرة، وكأنَّ رغبتي في الحركةِ قتلٌ للحركةِ! ألستُ أتحرك الآن في مكاني وبين هذه الأغصان الجافة؟ نعم، هو شعور بالوحشة، بالوحدة، لكنه ليس شعورًا قاتلًا على أَيةِ حالٍ. إذا كانت الحياة موجودةً داخلنا فيمكننا أن نعكسها على كلِّ ما ومَنْ هو خارجنا، وأنا حية، والحركة في أعماق الشجرة حية، وتحتاج فقط إلى شيء ما لا أعرفه الآن كي تتدفَّقَ وتنطلقَ في كلِّ الأغصانِ لتكتملَ فرحتي بتورُّدِ كلِّ هذه الثماروالفاكهة.

يااااااااااااه! ماذا أقول؟ وأين ذهب ذلك الرجل؟ هل ذهب ليبحث عن شيء ما مَثَلًا كي يسكبَه تحت جذور الشجرة؟ أم ذهب ليبحث عن لوحة الهواء المحروق التي كلَّمَنِي عنها؟ أم ذهب ليبحث عما يقول إنهم أباء له وإنهم أبناء له – هؤلاء غير هؤلاء – لكنه حلقة وصلٍ بينهم كما فهمتُ من كلامه، بين جيل مضى وجيل تائه أو

موجود في مكان ما، في مستقبل ذلك الرجل، سيجده بالتأكيد كما قال لي، إذا أجاد البحث، وإذا استطاع أن يتشمَّمَ أثرَروحِه حتى يصل إليها فتعود إليه ذاكرتُه كاملة غير منقوصة ويعرف مَن سبقه ومَن تفرّع منه ولا يوجد الآن، إلا على سبيل الافتراض في مستقبل لا يعرف أين هو. وساعتها ربما تعود لي أنا ذاكرتي أيضًا كاملة غير منقوصة، فلا بدَّ أن يُحْدِثَ ذلك الارتباطُ بيني وبينه مفعولَه، ويبثّ الحياةَ في ذاكرتي ويشعلها لتَتَّقِدَ بكامل حضورها...

إحساس فظيع: أن تبدئي أنتِ وشخصٌ الحياة معًا، تدبُّ فيكما الحياة في نفس الوقت وتفاجئين بأنه اختفى، وكأن حياتكِ منقوصة، كأنك فقدتِ شيئًا ما ولا تملكين إلا الأمل في أن يعود إليكِ من جديد.

لا أُبْصِرُ شيئًا في هذا الامتداد، ولكنني آملُ في عودته، على الأقل بقَدْرٍ من الماء، حتى أستطيعَ أن أُزيحَ ما يعوقُ الحركة في داخل الشجرة، ما يعوق الحركة والاشتعال في ذاكرتي.

الصدى

هههههههههههههههههه أنا صدى، ما لي بذلك الراوي؟ وما لي بجمال الجزيري؟ عندما طلب مني أن أسافر مع الراوي وافقتُ على الفور دون أن أعرف تفاصيل المهمة. تركتُه هناك في الغربة، وعدتُ أنا بلا جواز سفر إلى هنا، فالصدى حر، الصدى انطلاق. شعرتُ بالرغبة في أن أمرّ بالشوارع بالجيزة، أن أجلس على المقهى، أن أصعد فوق سطح الشقة وأستنشق الهواء البريَّ القادم من الصحراء، القادم من السماء، دون أن يزعجه دخانٌ أو ترابٌ أو محرِّكاتُ سيَّاراتٍ تنغّص عليك إحساسك بالشارع.

كان الراوي يطلب مني أن أنظر في منظاره لأرى ذلك المشهد الذي يتشكل حسبما قال أمام عينيه، وقال إن الصورة مشوشَرةٌ أو مُغَبّشةٌ أو مشوَّشَةٌ، بها زغللة، أو بها صهد أو شُوبٌ كأنه سرابٌ يشوّشُ على عدسة المنظار. قلتُ له:

- تصفو الرؤية وأشاهد. أمَّا الآن، فأنا أستمع لصوت الشيشة وهي تعقد حوارًا مع سيراميك السطح، كأنه صدى لها، أو كأنها صدى له.

أصرَّ على أن أنظر من المنظار، فأشرتُ بيدي نحو العمارات التي علتْ بأدوارٍ مُخَالِفَةٍ ولم أرَها من قبل، محذِّرًا إياه وإياي من الكارثة، خاصة وأنه يبدو أنه لا هناك رقيب ولا هيبة ولا حتى التفكير في الحفاظ على ما تم تنسيقه وتهيئته لحياة فسيحة في هذه المدينة الجديدة. نظر إليها، ثم أعاد النظر إلى سطح الشقة وقال:

- شقة كاتبي ليستْ مُخالِفَةً.

نظرتُ إليه نظرة طويلة، لكنه لم يفهم إنني كنتُ أقول له:

- هي ليستْ مُخالِفة، لكن المخالفين سيحجبون النظر.

وكأنني أقول له أيضًا:

- ربما لن تستطيع أن ترى ذلك المنظر الذي تحاول أن تراه الآن أو ترى مناظر أمثاله عندما تجيء في المرة القادمة، ربما لن تصفوَ لك رؤيةٌ بعد الآن، لأن الضباب سيتكاثر وسيحجب كل شيء، ستكون مَعْمَعَةً، ستكون مَفْرَمَةً، ستكون مَطْحَنَةً، والرؤية لا تصفو مع المعامع والمفارم والمطاحن، لأن مَن يكون داخل الخلّاط لن يستطيع أن يخرج منه ليبصر الصورة كاملة، وساعتها سيضحك كبيرُ المطاحن والمعامع والمفارم ويقول: "عَفَارِم عليّ، هنيئًا لي، فها هي الصورة تنتقل إلى الزاوية التي أردتُها، ها هي العيون تبتهل للحواجِبِ، أو على الأقل لا تفكر في أن ترفع نظرها، لأن الأوجاع في الداخل لن تبرحَ أوجاعَ الجُوعِ والعطشِ". لكن ذلك الكبير لن يدرك أن المعامع والمفارم والمطاحن عندما تعمل على الدوام ستنفجر بمن وما فيها في وجه مشغّلِها، وستتّسِعُ المفرمةُ في المكان وتشملُ كلَّ شيءٍ وكلَّ شخصٍ.

عاود الراوي الانغماس مع المنظار. ولم يسمع حتى الخبطات التي على باب السطح. وجدتُ ابن البوّاب يقدم لي فواتير مياه وفواتير كهرباء متراكمة منذ شهور، منذ أن دفع جمال الجزيري القسط الأول، وقدم لي أوراقا أخرى يقول إنه كتب فيها ما أحضره للعمال. هممتُ أن أنادي على ذلك الراوي ليطعّم قصته بكلام ابن البوّاب، لكنني تركته وأخرجتُ ما يطلبه من جيبي وأغلقتُ الباب بابتسامة بلهاء. وأخذتُ أضحكُ عندما وجدت أن المبلغ الذي طلبه منّي وأخذه كان أضعاف قيمة الفواتير، ولا أعرف إن كان أحضر شيئا للعمّال بالفعل أم لا.

ضربتُ الراوي على كتفه، مُمَازِحًا وقائلًا له:

- دعني أرى المشهد.

ابتسمَ ابتسامةً ماكرةً وتركَ لي المنظارَ. لم أرَ شيئًا سوى صورة ثابتة مرسومة بالقلم الرصاص على ما يبدو، فكل ما فيها يتدرّج ما بين الرماديّات، سوى بقعة زرقاء فاتحة كأنّها كتلةُ لحمٍ مغطّاةٌ، وبالقرب منها ما يشبه العشب الطويل أو غصن شجرة مقطوع ومثبّت في الأرض. تركتُ عينيّ تتعمّقان في جميع جوانب المشهد. كانت هناك خواتم أو دبابيس أو مرايا صغيرة جدا من تلك التي كانت في مبراة أقلام الرصاص قديمًا وربما في أقلام مراود الكُحْل أو شيء من هذا القبيل، كأنها كانت تلمع بشراسة أو بتوعُّدٍ أو بتحفُّزٍ للانقضاض، كعيون تلك القطط التي رأيتها في لوحة لامرأة لفُّوها بالسواد من كل اتجاه، وتحاول أن تكشف نفسها وتفسح المجال لنسمة هواء تستنشقها، والقطط تقف بجانبها متوعِّدةً كل من يقترب، كأنها تحرس تلك المرأة إلى أن تنتهي من مهمة تحرير نفسها. لم أجدْ مُبَرِّرًا لتلك القطع الزجاجية وذلك البريق المتحفّز الذي لا يوجد حوله ما يدعو للاستماتة والشر هكذا. هذا كل ما في الأمر.

استغربتُ وخمّنتُ أن صديقي عندما ترك لي المنظار تحرّكَ قليلا فابْتَعَدَ عن مصدر المشهد الذي كان يراقبه أو يتأمله. أدرتُ المنظارَ إلى أن وضحَ مشهدٌ أمامي وضوحًا تامًّا. كان هناك رجل وكانت هناك شجرة. يبدو أن الرجل ساكن في مكانه، أو يتحرك ببطء شديد، ولكنه كان كصورة في فيلم تتفرّعُ منها أو عنها عشرات الصور – لا أعرف إن كان الفعل "تتفرع" دقيقا أم لا – كأن هذه الصورة لها ظلال كثيرة ويوجد صراع بين الرجل وظلاله، كأنَّ هناك شيئًا مخنوقًا يريدُ أنْ يتحرَّرَ، كأنَّ هناك شيئًا محبوسًا يريدُ أنْ ينطلقَ، كأنَّ هناك محاولةً للتذكُّرِ، وتعاندُ الذاكرةُ صاحبَها الذي يتصارع معها، فتخرج عشرات الوجوه التي بلا ملامح واضحة، وكأنها غائمة وستصفو بعد حين، عندما يهدأ الصراع، أو عندما يتوصل

الشخص وذاكرته إلى صفقة بينهما: يتنازل كل منهما عن بعض الأشياء في سبيل كسب الأشياء الأخرى.

وفي الجهة الأخرى، كانت هناك تفاحة وبعض الثمار الأخرى، وتتصارع هذه الفواكه مع بعضها البعض. لم تكن هناك تفاحة بالمعنى الدقيق، ولكن كانت هناك ثمار تتصارع مع بعضها البعض وتحتكُّ ببعضها وتتباعد وتقترب مرة أخرى، كأنها تتناوش أو تتقاتل أو أي شيء من هذا القبيل. أحيانًا تهبط للأرض، ثم تعود لتلتصق بالشجرة مرة أخرى، ثم تنفلت يمينًا ويسارًا، تدور وراء بعضها البعض، تطارد بعضها البعض، لتبرز في النهاية تفَّاحةٌ تستديرُ وتتبدَّى فتنتُها، لتلتصقَ بغصن الشجرة وتبدأ بعض الأورق في النمو على الغصن بالقرب من التفاحة، كأنها تحرسها مثل تلك القطط، وفي الوقت ذاته برزت للتفاحة عينان. في البداية كانت العينان مغمضتين، ثم انفتحتا تدريجيًّا، وكان بهما قَدْرٌ من النوم، أو قَدْرٌ من الأحلام، أو قَدْرٌ من تفتُّحِ الوعي، كأنَّها أخذتْ تحدِّدُ معالمَ الحياة حولها تدريجيًّا وتلتقطها لتتأمَّلَها، ثم تقوى نظرتُها وتزدادُ حدَّةً أو وعيًا مع استيعاب كلِّ ملمحٍ من ملامح الحياة حولها.

لا أعرف إن كانت امتعضتْ من صراع الظلال مع ذلك الرجل أم أنها أشفقت عليه، فعندما وضح أمامها المنظرُ تماما، ويبدو ذلك من نظرتها المتأملة في نفس الاتجاه، أغمضتْ عينًا، وظهر في عينها الأخرى ما يشبه الفزع أو الترقُّب أو الانتظار، وكأنها تستمدُّ شيئًا من الصراع الدائر أمامها، تخشى من نتيجته وتخشى من التفات الظلال أو الرجل لها فيهمَّ بقطفها أو التعرُّض لها. مجرد تخمين، لكن هذه النظرة الحادة بالتأكيد عندما تجتمع مع العين المغمضة يخلقان منظرًا ومنظارًا أقرب للحلم أو الرؤيا. هل كانت العين المغمضة ترى أشياء تفزع منها العين

المفتوحة؟ أم كانت تتوقع العين المغمضة أشياء فتزداد العين المفتوحة وعيا وترقُّبًا وحدَّةً؟ هل كانت العين المفتوحة تنقل للعين المغمضة ما يدور أمامها من صراع، فتحدد المغمضة ملامح الصور التي تراها أو تضيف لها أشياء تناسب حالة الصراع بالخارج؟ لستُ أدري.

يبدو أن تلك الظلال بدأت تتوحد في ظلٍّ واحد، وانتصر أحدها على الآخرين، أو التحموا جميعا في ظل واحد يجمعهم مع بعضهم البعض في سيمفونية ما، فها هو الرجل يستطيع الاعتدال، وها هي الظلال تصير ظلًّا واحدًا للرجل المعتدل الذي يبدو أنه يهلِّلُ فرحًا باعتداله، أو يريد أن يقول:

- ها أنا نهضتُ. ذهبتْ كومةُ اللحمِ وذهبتِ البقعةُ الزَّرقاءُ ووقفتُ أنا على قدمين يجعلان الحركة متاحة لي. هل أنا الذي أَتَحْتُها لنفسي؟ أم هو ذلك الصراع؟ أم هي تلك النظرة التي أسقطها عليّ صاحبُ المنظار؟

عندما سمعتُ عبارة "صاحب المنظار" في كلام رأسي أخذتُ أضحك: هل أنا صاحبه؟ أم ذلك الراوي؟ أم مَن أرسلنا إلى هنا؟ هل نظرة الراوي أم نظرتي هي التي يتكلم عنها؟ فها أنا شاهدتُ جزءا من الصراع، شاهدتُه وهو يتشكّل أو يقوم بتوحيد ظلاله في ظل واحد، بالرغم من أنني أعرف أن جمال الجزيري قد يستاء من توحيد الظلال في ظل واحد، فهو يرى أن للإنسان عشرات الظلال، أن له عشرات الأصوات، عشرات النبرات التي تمتد لتلتحم بكل ركن من أركان الكون والأكوان المجاورة، تمتد لتلتحم بنبض الأرض، بكل الأرواح الحائرة المُتشوّقة للحياة.

لكن هذا ما حدث: رجل له عشرات الظلال ينكفئ، أو لا يستطيع الاعتدال، فتتصارع هذه الظلال مع بعضها البعض من ناحية، ومع ذلك الرجل من ناحية

أخرى، وكأنه لا يذكرها، أو كأن ذاكرته مشتَّتةً، فتنقسم، أو يتفتَّت الظل الواحد إلى عشرات الظلال أمامه.

ولكنني في الوقت ذاته احترتُ، فمن المُفتَرَض أنني لستُ مشتَّتًا وأنني كنتُ سأرى الرجل وظله يتصارعان فقط، لا أن تتصارع الظلال مع بعضها البعض أو تنقسم في صورة تعبيرية أو انطباعية أو... – لا أدري – إلى عشرات الظلال المتصارعة مع بعضها البعض. هل أنا الذي أراها هكذا؟ أم هو الذي يراها بعيونه؟ وأنا لا أنقل من منظوره الآن، وإنما أنقل ما أراه فقط. فإذا كان صراعًا داخليًّا، فمن المفترض أنني لا أراه. ولكنني أراه. لا أستطيع أن أفسِّرَ شيئًا.

ويبدو أن التفاحة ما زالتْ في استغراقٍ أو تأمُّلٍ أو مراقبةٍ، لكن عينها صفتْ قليلا عندما وجدتْ نتيجة الصراع إيجابيَّةً على ما أظن، فها هي تتخلَّصُ من نظرة فزعها، لكنها أغمضت العين التي كانت مفتوحة وفتحت العين التي كانت مغمضة. هل لترى المشهد من زاوية أخرى؟ أم لتُزَاوِجَ بين نظرتين أو مشهدين أو رؤيتين؟ هل عينها هي الأخرى منظار يتسلَّطُ عليَّ؟ فأحيانًا أرى أنها تنظر إليّ نظرة محايدة في الغالب، لكنني إذا جمعتُ بينها وبين النظرة الفزعة من قبل ربما كان فيها قدر من التهديد، ولا أعرف لماذا تهددني ونحن لا يجمعنا سوى منظار! وأنا أدرك أن هذا المكان كله ليس في مجال نظري من فوق سطح الشقة، والمنظار – أيًّا كان – من المُفْتَرَض أنه سيجلب لي مَنْظَرًا من أيِّ شارعٍ أو أيِّ حيٍّ من الأحياء الممتدَّةِ في جميع الاتجاهات أو حتى... لا، هذه هي الصحراء أيضًا، وها هي الأهرامات، وها هي طريق الفيوم، فهذا كله امتداد صحراوي لا يوجد فيه إلا بعض معسكرات الجيش، كما رأيتها في سفري الأخير إلى الصعيد مع جمال الجزيري. ما علاقة هذه المعسكرات بما

أراه؟ هل هناك رابط بينهما؟ هل غيابي مع جمال الجزيري في الغربة جعلنا نشتري شقة في منطقة محفوفة بالألغام؟!!

كل الاحتمالات واردة إذن، وربما هذا المنظر قريب بالفعل، حتى لو كان على مستوى التخيل أو كان على مستوى النظرة أو على مستوى الاسترجاع أو مستوى يجمع بين المستويات، يبدو أنه برزخٌ، وسيرة جمال الجزيري مع البرازخ طويلة، ولو دخلنا فيها لن نستطيع أن نخرج إلا بعد وقت طويل، ما علينا، وأنا شخصيًّا لا أعرف إن كانت عدسة المنظار لها ذاكرتها الخاصة بحيث تستطيع أن تستحضر لمن ينظر منه مناظرَ رصدتْها من قبل أم أنها تنقل بشكلٍ محايدٍ وفوريٍّ ما يقع في نطاق التقاطها. لا أستطيع أن أحسمَ شيئًا.

استقام الرجل في وقفته. امتد ظلُّه. التفاحة أو عين التفاحة محايدة إلى حد ما. يبدو أن الصراع سينتقل من صراع فردي بين التفاحة والثمار الأخرى، وصراع فردي آخر بين الرجل وظلاله، إلى صراع بين الرجل والتفاحة، وكأن صراع كل منهما مع أقرانه كان تصعيدًا في مسابقةٍ ما أو في صراعٍ ما.

الرجل يتحرك مبتسمًا عندما يلتفتُ للتفاحة، ويبدو أنه يراها لأول مرة، فها هي نظرة استغراب في عينيه وكأنه فوجئ بهذه التفاحة، أو كأنه يهلل لوجود كائنات أخرى حوله. وها هي التفاحة تتخلَّى عن حيادِها قليلًا وتُبْرِزُ شبهَ ابتسامةٍ، وربما تريد أن تتأكَّدَ أوَّلًا من نيَّةِ ذلك الرجلِ الذي يتقدَّمُ نحوها ببطءٍ شديدٍ كأنه مُرهَق تماما، أو كأنه لم يأكل أو يشرب شيئًا منذ فترة طويلة جدا، وها هو يصارع العطش والجوع والإرهاق وبقايا صراع يبدو أنها كادت تهلكه.

يُفتَرَض أنَّ التفاحةَ أيضا كانت في صراعٍ أو هكذا رأيتُها، ويُفتَرَض أنها مرهَقَة أيضا، ويُفتَرَض أن الشجرة التي هي عليها مرهقة أيضا، ولا يوجد إلا غصن صغير: عدة سنتيمترات تمتد بالخضرة في الغصن الجاف الذي توجد عليه التفاحة.

روحان مرهَقَتَان. هل نَصِفُهما كذلك: الرجل والتفاحة؟ هو رجل روحه مرهقة وهي روحها مرهقة، أو فلنقل: صداها مرهَق وصداه مرهَق. وبالرغم من أنني صدى، لا أعرف كيف أثنّي كلمة الصدى: ها هما صدان؟ صديان؟ يبدو أن الصدى المرهَق في حاجة إلى الصدى المرهَق لكي يلتقيا ويسرّبا كلَّ الإرهاقِ بعيدًا عنهما، فالإرهاق والتعب كما أعرفهما من سيرتي مع قراءات ذلك الجزيري علامتان على الخبرة، على عَرْكِ السنين، أن تعتركك السنون أي أن تدهسَك، تدهَكَك، تعتصرَك، تختبرك، تبتليك. لا أعرف التعبير بالضبط، لكنك تخرج من الصراع معها جريحًا: المُتْعَب والمرهَق مرًّا بتجارب لا حصر لها، في الغالب معظمها مؤلمة. صراعات، عذابات، مجاهدة في سبيل البقاء وامتداد الخطو. هل كان الصدى والصدى يريدان أن يسرِّبَا الإرهاق الذي اكتسباه في فترة صراع مؤقتة أو قصيرة حتى يفسحا المجال لتعب سنوات ستجيئ. يبدو من المنظر الذي كان في البداية أن التفاحة والشجرة والرجل محنَّطون منذ عشرات السنوات. هل الإرهاق إرهاقُ ما قبلَ هذه السنوات، أم هو إرهاق ناتج من سنوات هذا التحنيط؟ يبدو أنهما كانا في حاجة إلى اللقاء، أو على الأقل إلى الأُنْسِ ببعضهما بعضا.

ها هو الرجل يقترب، ها هي التفاحة تقترب قليلا ثم تتراجع، وتعاود نظرةُ الهلعِ الظهورَ في عينيها. هل فسرتْ حركته تفسيرًا جعلها تفزع؟ هل أبصرتْ ما وراء حركته؟ أم أنها احتمتْ بإحساس سابق بدأتْ تتذكره للتو، فكأن فترة التحنيط مرتْ عليها سُدًى وكأنها فقدان للذاكرة، وها هي عندما رأتْ الرجل يتقدم نحوها

بدأتْ تتذكر تجربة سابقة، وكأن ماضينا يقف حاجزًا بيننا وبين الانغماس في أي تجربة جديدة، كأن مخاوفنا قيدٌ، كأن تجاربَنا ابتلاء، كأن خبراتنا السابقة تُغْشِي نظرَنا فتجعلنا نُسقِط ما اكتسبناه منها على ما أو مَن أمامنا لنقطع طريقًا أو جسرًا يمكنه أن ينقلنا إلى عالم جديد، إلى تجارب تسخر من تجاربنا الماضية وتسخر مما رسَّبتْه فينا من كلاكيع، من هواجس، من مخاوف، من توجسات. تراجعتْ قليلا. ربما فهمتُ الآن السببَ. أرى أسنان الرجل تصطكُّ. هل هو يشعر بالبرد أو الرعشة فتصطك أسنانه؟ أم أنه يشعر بالرغبة في القرمشة، في الالتهام، فتصطك أسنانه استعدادًا للقنص الآتي، أو تخويفا لهذا القنص حتى يفقد مقاومته ويسلم نفسه للأسنان تلقائيًّا؟

منظرٌ يقوم على الاحتمالات، فالصورة الصامتة تفتح أبواب التأويل وتغلق أبوابَ اليقين، وهذا من جمالها، فكم مللنا من اليقين، فمَن يعتنقون اليقين – من اليمين أو اليسار أو المنتصف أو ممن يرسم ملامحَ صورِهم جميعا ويضبط زواياها على مقاس طمعه وتطلعاته – سيقتلون كلَّ صوت يشعر بالشك، كلَّ وجه يتعامل مع الحياة على أنها تجربة متجددة لا مجال فيها للانتكاس إلى مرحلة التحنيط، ولا مجال فيها للارتكان في زوايا جامدة. صورة تفتح أبواب التأويل على مصراعيها، وتجعلك تندمج في هذا الصراع الذي يبدو خفيًّا، كأن ما أراه أمامي مجرد سطح لامتدادات في الزمن لا أدركُ أبعادَها.

هل أشفقتِ التفاحة عليه؟ يبدو أنها ترى اصطكاك أسنانه بنظرة مغايرة، فها هي تتخلص من وجلِها أو فزعها، وتلقي بنفسها نحو الفم والأسنان، وفي طريقها تسلّم على الأيدي الممدودة، وسرعان ما تعود نحو الشجرة الجافة، وتصعد الأغصان كأنها تبتعد عن ذلك الرجل وعن أسنانه. ألاحظُ قضمة مقطوعة منها،

لكن عينها لا تحتوي على نظرة فزع أو نظرة ألم. لاحظتُ ذلك قبل أن تستدير وتتسلق الشجرة، كأنها تتحسَّسُ شيئًا في هذه الشجرة، وكأنها تحاول الاستماع إلى شيء ما، فهي تلتصق بها كثيرًا، كأنَّها تودُّ لو تتوغَّلُ في أعماق الأغصان الجافة حتى تصل إلى ما تريد، وكأنها تحاول أن تستنشق روحَ الكونِ كله في فَجْرِ يومٍ تحسُّ في هوائه الحياةَ كلها. مجرد تشبيه كأنني مثلا على هذا السطح بعد شهر من الآن، أو ربما بعد أيام، قبل أن تزداد حدة البرد وبعد أن يتلاشى الخريف. تستيقظ أو ربما كنتَ ساهرا مثلي حتى الفجر وتقف فوق السطح، تفرد ذراعيك، توسّع صدرك، تغمض عينيك، تستنشق الهواء الذي لا تعرف ما السر فيه، كأنك تريد أن تُولَدَ من جديدٍ، كأنك تحاول أن تتوحَّد بروح الكون، كأنك تحاول أن تنغمس في شيء لا تعرفه جيِّدًا، لكنك تحسُّ بأنه الحياة كلها. هكذا رأيتُ التفاحة وهي تلتصق بأغصان الشجرة، ولو كان غصن هذه التفاحة أطول قليلا، ربما امتدت لتلتصق بالجذع وتمتد نحو الجذر حتى تصل إلى ما تريد.

وفي الوقت ذاته، رأيتُ الرجل يتراجع. يبدو أنه أدركَ لحظةَ خصوصيةٍ لهذه التفاحة، فتركها تعيشها كما يحلو لها، وتكمل بحثها، ليُفاجأ هو بالنتيجة بعدها، فها هو يدير ظهرَه لها بعد أن يرمقها بنظرة اهتمام وربما شكر، تقدير، وفاء، عرفان. نظرة مُحبَّبَة تخلو من الشهوة. ويعود...

هههههههههههه هل كان يسمعني عندما كنتُ أقول "كأن" وأصف نفسي فوق سطح الشقة؟ فها هو يتجه نحوي مباشرة كأنه يعرف أين المنظار بالضبط، ويقف أمام عدسته كأن عينه في عيني. يفرد ذراعيه بالعرض. يوسّع صدره. يُغمض عينيه. يستنشق هواء بعمق. يبدو أنه بدأ يدندن مع صوت ما أو يسمع موسيقى ما، فها هو بدأ يحرك جسمه وهو مغمض العينين بنفس الوضعية السابقة، كما

لو كان زوربا اليوناني، لا ينقصه سوى البحر. ويبدو أنه عندما أغمض عينيه رأى في الرمال المترامية بحرًا ورأى أشجارًا حوله هنا وهناك، وسمع موسيقى فيلم زوربا أو موسيقى غيرها، ويبدو أن الموسيقى – منطقيًّا – تنبع من داخله، وليست من خارجه، فلا أرى مصدرًا سواه والتفاحة والشجرة، وما خلفهما وما أمامها وما حولهما رمالٌ مترامية، ويبدو أنها رمال صافية كذرات التراب الناعمة التي تتشكل كما يحلو لها كل دقائق حسب حركة الريح، ومن الواضح أنها لم تخطو عليها أي قدم منذ سنوات.

ها هو يتراقص، ها هي التفاحة تتوغَّلُ في روحِ الشَّجرةِ، وها هو يتوغَّلُ في روحه، روحها، روح الكون أو روح الرمال، أو... لا أدري بالضبط. لا أريد أن أتركهما، وفي نفس الوقت لا أريد أن أشاهدهما دون أن أسجِّلَ ما أرى على الهاتف، فجمال الجزيري هذا لحوحٌ جدًّا، ويريدني أن أبعث له كل ما أسجله أنا أو الراوي، ولا يعرف أن بطارية الهاتف هنا لا تحتمل كثيرًا، فالكهرباء لا تحضر كثيرًا، وما أن تشحن نصف بطارية الهاتف حتى تنقطع الكهرباء من جديد، كما أن المكالمات هنا رخيصة نوعًا ما، وهذا الأمر يدعو للثرثرة، مما يفتح الباب أمام نفاد البطارية بسرعة. كما يبدو أن منظر التفاحة ومنظر الرجل سيستمران على هذا الشكل طويلًا، فكل منهما يبحث عن شيءٍ ما، يحاول أن يتواصل مع شيءٍ ما، فلأتركهما الآن لذلك الراوي وأحاول أن أُغْمِضَ عينيّ حتى إذا ما انقطعتِ الكهرباءُ لا ينقطع النورُ عما أراه أو أتخيله أو أراه وأبني عليه من خيالي.

الهواء المحروق

من أنا؟ هل يصحُّ أن أسأل هذا السؤال؟ أم عليّ أن أتوغل في البحث كي أصل إلى الإجابة من دون السؤال؟ لا أعرف إن كانت ذاكرتي تعاندني أم كانت هي الأخرى ميتة مثلي، محنطة مثلي في هذه أو تلك الصحراء وذلك البيت المهجور، أو تلك المنطقة التي غرب أسوان، أو في الواحات أو في السودان! لا أدري من أنا، كأنني شخصية موزّعة في الروايات والقصص، تفصيلة منها هنا، تفصيلة منها هناك، ولا أعرف لماذا أتذكَّرُ تفاصيلَ الروايات والقصص بالرغم من أنني لم أقرأها، وكأنها محفورة داخلي، كأنني أنا هي أو هي أنا، وما دمتُ أنا مشتَّتًا في البلدان هكذا، في بلدان الروايات والقصص، في البلدان التي تنبت منها الروايات والقصص، لا بدَّ أنها أنا. نطفة هنا، نطفة هناك، كأنني هناك في "أنا الملك جئت"، كأننا هناك في "ما وراء النخيل"، كأنني هناك في "طقوس العبور"، وكأن جمال الجزيري كان يراني عندما وصف ذلك الذي أسماه عم إسماعيل، لكنني أذكر نفسي عندما قلتُ له:

- نَمّ فأسَك.

فنظر لي مستغربًا في البداية، ثم نَقَلَ نَظَرَه إلى الفأس الخشبيَّةِ برأسها الحديدية وكأنه يقول لي:

- كيف تنمو الفأس وقدْ صارتْ جمادًا؟ أصلها من شجرة نعم ومن حديد؟

وتعثر السؤال في عينيه:

- الحديد من السماء والخشب من شجرة على الأرض.

ويبدو أنه بدأ يربط بين طلبي وبين الجمع بين الحديد والخشب، ولهذا أخرجتِ الأرض حنانَها، وشعر وكأنه يولد من جديد، كأنه يعود إلى رحم أمه. هل لأنه تدبّر الطلبَ، تأمل، تفكّر، ربط، سار في الأرض؟ أم لأنه دخل مثلي في ملكوت تلك الثمرة التي كانت بعد الخروج من... من ماذا؟ قال ناقد إن هذه الرواية القصيرة رحلة إلى العالم الآخر، تصوّرُ ما بعد الموت. هل كنا ميّتين ثم خرجنا لنأكل أو نشرب – لا أدري بالضبط – من تلك الثمرة التي لا مثيل لها؟ أشعر كأنَّ الكراسي الرخامية، التي تحرق مَن يجلس عليها وتُبَخِّرُ الماءَ أيًّا كانَ، تُشْبِه ذلك الرخامَ أو التحنيطَ أو الحجرَ طوال تلك السنوات التي لا أدري عددها. كنتُ ناهضًا في تلك الرواية التي كتبها جمال الجزيري في ٢٠٠٩ و٢٠١٠، فما الذي حدث لي بعدها؟ هي لم تكن سنوات طويلة إذًا، سنوات معدودة، فلماذا تبدو كالتيه هكذا؟ لماذا أشعر بأن ذاكرتي مفقودة منذ سنوات طوال؟ أم أن الذكرة عندما تضيع يختلط فيها الطول والقِصر وتتشابه الملامح وتمتزج السنوات والعصور، دون أن تستطيع أن تفصل بينها أو تميزها عن بعضها البعض؟ ولماذا ذاكرة الروايات والقصص والفنون والآداب هي الوحيدة الحاضرة في رأسي وقلبي على الدوام؟ أهي خلاصة؟ أم أنها نقطة أيضا من البرزخ، وما يدخل البرزخ يلتحم بالملكوت دائم الحضور؟

هل كنتُ محنَّطًا في قبر وكانت تلك التفاحة تعيد علاقتها بي أو أعيد علاقتي بها كأننا خرجنا من القبر؟ وما علاقتنا ببعضنا؟ لماذا أشعر بالألفة الشديدة معها مع أنني أراها لأول مرة على ما أظن؟ لماذا أحسُّ بأننا التقينا من قبل؟ لماذا أحس بأن وجودنا في هذه الصحراء كان عبارة عن لقطة من حياتنا سويًّا من قبل، ولكنَّ مُخْرِجًا ما يعشق الصور الثابتة قام بتثبيت اللقطة لتظل هكذا لسنوات؟ هل كان التصاقنا بالأرض وثباتنا سكونًا، جمودًا، موتًا، هبوطًا، وها نحن نصعد أنا وهي

وحيدين كما كنا على ما أظن أو بالأحرى على ما أذكر؟ فها هي ذاكرتي تقول لي إننا كنا هنا سويًّا منذ زمن، ويُخال إليّ الآن أنني رأيتها في ذلك البراح الواعد بالخضرة عندما خرجنا من المستطيل في طقوس العبور؟ هل رأيتُها بعد الخروج من المستطيل أم هي أمي التي كنتُ أحاول الاتصال بها وتمكنتُ فعلا من سماع صوتها في نهاية تلك الرحلة بطقوس العبور؟ فما أو مَن الذي أحال تلك الصحراء الواعدة بالخضرة والخَضَارَ في طقوس العبور إلى هذه الصحراء حولنا الآن؟ ولماذا كانت تختفي جميع معالم الحياة من حولنا في تلك الصحراء أو في ذلك البيت المهجور ولم يتبق منها سوى أصوات الحشرات؟ هل الثعبان حشرة؟ لا أدري. ولماذا كنا نحتاج فقط إلى نظرة تقع علينا حتى نبدأ في استعادة حياتنا، ولا يهم بعدها إن عادت الذكريات أم لم تعد؟

وها أنا أجد محاولاتي للتذكر عبثية ربما، ما جدوى أن أتذكَّرَ شيئًا حدثَ قبل أن أتحنَّطَ، قبل أن ألتصق بالأرض، قبل أن أصير حجرًا أو رخامًا، وربما أحرقتُ آلاف البشر من أولئك الذين جلسوا عليّ؟ هل أنا الذي كنتُ أغوص في روح الثمرة بعد الخروج من الباب مع ذلك الذي... هل أسميه جمال الجزيري؟ أم أسميه بطل الرواية القصيرة أم أسميه بطل القصة؟ أم أسميه ذلك الباحث الساعي السائر في الأرض؟ هل كنتُ أنا الذي أستغْرِقُ في روح الثمرة بجانبه؟ أم أنا الذي طرحتُ عليه السؤال داخل ذلك الممر الذي ربما كان بشكله هذا – ببابه الأمامي وممره الطويل الذي يشبه الصندوق أو النفق وبابه الخلفي – صخرة مثل تلك الصخرة التي كنتُ أتحنّطُ فيها طوال تلك السنوات؟ هل أنا ذلك المبنى بما فيه من جحيم، بما فيه من أسئلة، بما فيه من خطوات نحو المعرفة؟ أم كنتُ أنا تلك الكراسي الرخامية الحارقة؟ أم كنتُ أنا أدعو ذلك السائر في الأرض لأن ينمّي فأسه، لأن يكتشف

الحياة بداخله، وكأنني كنتُ حيًّا؟! هل كنتُ أنا وهو شخصًا واحدًا؟ وجهين للشخص نفسه؟

هل جمودي ذلك يعني أنني كنتُ مَيّتًا؟ هل عدم وجود ذكريات يعني أنني كنتُ بلا حياة؟ هل ذكرياتي حياتي أم حياة موازية لي لها عالمها الخاص، منطقها الخاص، قدرتها على التمنُّع، قدرتها على الاختفاء، قدرتها على التبدّل، قدرتها على الامتزاج، فتتذكَّر أشياء لم تحدث، أشياء هي الأخرى خليط من هنا وهناك؟ وكأن هذه الذكريات هي نفسها أنا المُشَتَّتُ بين تلك الروايات والقصص، أنا الذي ربما عدتُ إلى وعيي، أو تحوَّلْتُ إلى حياة جديدة، أو دخلتُ في طفرة أخرى من الوجود، بعد أن وقعتْ عليّ عينُ ذلك الراوي من المنظار، أو وقعتْ عليّ عينُ صديقه الذي يقول عن نفسه إنه صدى جمال الجزيري. ذكريات لها حياتها الخاصة، قدرتها على التشكّل، قدرتها على التشكيل، قدرتها على النمو، قدرتها على توليد قصص، أشكال، وجوه، علاقات، مواقف، عبارة عن مزيج من مواقف ربما كانت موجودة بالفعل، وربما كانت هي الأخرى مؤلَّفة أو مكوّنة من مزيج من مواقف أخرى، وأنا لي حياة قبل ذلك لا أذكرها، لا أذكر إلا مرحلة التحنيط، التجمد، التصحر، التصخُّر، التيبّس، الهبوط، الالتصاق بالأرض: هذه هي المرحلة التي أذكرها. ما قبلها لا أذكر عنه شيئًا. لا أذكرني إلا في أحداث تلك الرواية في ٢٠٠٩ و٢٠١٠، وما بعدها سديم بالنسبة لي، ما معنى سديم؟ لا أذكر، ولكنني أحسُّ بأنها هي الكلمة المناسِبة هنا.

أذكر فقط بعض الصور حول مرحلة التحنيط تتراءى لي. أذكر ذلك الموقف جيِّدًا: عندما وقفتُ أمام اللوحة التي رأيتُ فيها نفسي، واستغربتُ كيف جسَّدَ ذلك الفنانُ الهواءَ المحروق الذي كنتُه أنا. هل كنتُ هواءً محروقًا لأنني كنتُ صخرة تصفعها الشمسُ كل دقيقة؟ أم كنتُ هواءً محروقًا لأنني كنتُ في ذلك

المستطيل أو المِعْبَرِ الذي له بابان بكراسيه الرخامية الحارقة؟ هل كنت أنا الذي أشاهدني ذلك الذي يطلب من السائر في الأرض أن ينمي فأسه: أنا أقف أمام نفسي، أنا الباني، أنا الزارع، أنا الحاصد، أنا المعمِّر، أنا زارع الحياة أقف أمامي أنا المحروق الملتهب المتبدِّد الذي صار صَهْدًا أو شُوبًا متجسِّدًا في لوحة لا أعرف كيف التقطَها أو التقطَني ذلك الفنانُ الذي لا أعرفه؟

ما هذه الثنائيات؟ أنا الحيُّ أشاهدُني أنا الميت، أنا المشتَّتُ في الروايات والقصص وذكرياتي تجميع من هنا وهناك، ذكرياتي تخلِّقُ نفسها كأنَّ ذاكرتي ذاتها مَصْنَعٌ، أنا الذي أتكلَّم الآن بعد أن وقعتْ عليَّ نظرةٌ وأنا ذلك المُحَنَّط، وذلك الذي قبل مرحلة التحنيط الذي لا أذكر عنه شيئًا، لكنني أذكر أنني ربما كنتُ في خمسينات أو ستينات أو أربعينات القرن العشرين قبل أن أدخل فيما يطلقون عليه أحيانا الغيبوبة. أي غيبوبة وهي تحوُّلٌ؟ أنا أتحوَّلُ من هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى، من هذه الهيئة، من هذا الوجود إلى وجود آخر: ثلاثة وجودات ربما، إذا تتبعنا التسلسل الزمني التاريخي: مرحلة ما قبل التحنيط، مرحلة التحنيط بكل وعيها، فكيف يسمونها غيبوبة؟ ومرحلة استعادة الوعي أو الحركة الآن...

كنتُ أرى نفسي هواءً محروقًا، كنتُ أرى نفسي هائمًا في الريح، كنتُ أرى نفسي بلا حدود، أهيم هنا، أهيم هناك، أسيرُ، الكونُ كلُّه مِلكي، وأسيرُ في الأرض كما طلب مني ربي، فرأيتُ... هل أنا مُحاسَبٌ على ما أرى؟ بمعنى الروح من أمر ربي، أؤمن بذلك تمامًا، لكنني كنتُ أرى روحي وهي تهيم، كنتُ أراها. برغم السكون هناك في تلك الصحراء، أخرجُ من تلك الصخرة وأتجسد في أي شيء، أدخل في خيال هذا الكاتب، أتجسَّدُ أمام قاصٍ يغمضُ عينيه ليرى المشهد جيِّدًا، أقفُ كموديل أمام

رسّام، فيخال إليه أنه يراني، لتمتزج الحياة أمامه وأخرجُ أنا في هيئة ذلك الهواء المحروق.

هل للرواية أن تنتهي في خط زمني؟ أن تكون لها حبكة فذرْوة، فما يسمونه من مسميات؟ أنا متناثر، روايتي الآن تلك التي يكتبها جمال الجزيري وأذكُرُها جيّدًا كأنني قرأتُها تمامًا بالرغم من أنني أفسح المجال لصوتي فقط كما طلب مني أو كما قال أو كما أتاح لي جمال الجزيري. أنا نِثَارٌ، ولا أعرف إن كان هذا اللفظ صحيحا أم لا. أنا نثار هنا وهناك، منثور في ذلك الصوت للراوي، وذلك الصوت للصدى، وذلك الصوت للتفاحة، وتلك الأصوات لي، وربما أو أكيد، فلقد... هل سمعتُ أم رأيتُ أم عشتُ تفكيرًا يخطر في بالي... ماذا أسميه؟ كالسائر في الأرض أم الراوي أم الكاتب أم المؤلف أم...؟ فليكن له الاسم الذي يستحقه. لا تهم الأسماء الآن، فربما كانت هذه الرواية كلها اسمًا أو محاولةً للبحث عن الاسم أو ربما كان الاسم لا يهمُّ أصلًا.

هل "مَن أنا؟" تعني أن أذكر اسمي أم تعني ذلك التعدد والتنوع والانسياب والسيولة والتدفق ما بين حالة وأخرى، ما بين تقاطع وتوازٍ وانطلاق وهيام وسباحة في الملكوت، ما بين خاطرة أو لحظة غضب رأى فيها جمال الجزيري أنه يسافر إلى مصر وهو خارجها ولا يستطيع السفر إليها لارتباطه بالعمل فأرسل راويَه ليراني؟ أرسل صداه ليراني، وكان يظن أنه يكتب قصة أصوات، ولم يدرك أنه بدأ أول جملة فيها بـ"هل أعجبتكم الرواية القصصية اليوم؟" فصارت رواية، وصارت قصصية، وأنا عدتُ أو تجسدتُ على الأقل، فالميزة الأساسية هنا أنني تجسدتُ أمام عينيّ، ها أنا أذكر "طقوس العبور"، ولكنني لم أكن موجودًا ساعةَ كتابتِها، ومع ذلك كنتُ فيها، وأنا الآن موجودٌ وفاعلٌ أساسيٌّ في الرواية التي يستمع جمال

الجزيري الآن إلى ملفاتها الصوتية. هل هذا هو الفارق أم أن وجودي الآن هو مرحلة أو حالة ربما أقضي فيها عشرات السنوات هي الأخرى إلى أن يرحل جمال الجزيري وأبقى في كتاباته لأخرج منها وأطارد خيالات كاتب آخر؟

يتجسد المشهد أمام عيني في لحظة فارقة أو ومضة خاطفة. فأتتبعه ويتكلم على لساني أو أتكلم على لسانه. فتمتزج حالاتنا جميعا، كما تمتزج ذكرياتي وكما تمتزج وجوداتي. ونصير صدى يخطر لأي كاتب يستطيع أن يغمض عينيه ويرى النور. وكأن هذا النور الذي يتجلى عندما يغمض عينيه هو الذي يسقط عليّ فيجعل ذلك الكاتب يراني!

هل أنا صداه؟ أم مبتغاه؟ أم أنا شخصية هاربة منه؟ شخصية يحس بأنه التقاها منذ مئات السنين. نعم، ربما أنا هو، أو هو أنا، في حالات سابقة، في عالم سابق، ربما ينتمي لجدود الجدود، وربما في عالم آخر سابق على وجود الإنسان الحالي، ألم يقل الله سبحانه وتعالى إنه خلق ويخلق ما لا نعلم؟

لا يعني ذلك حنينًا للماضي، وإنما يعني التقاء الأرواح في روح الكون. التقاء يقول بأن هذه الأرواح كانت ممتزجة. ربما انفصلتْ في أجساد مختلفة. وربما تفرَّقَتْ في الجغرافيا، أو تبعثرتْ في التاريخ، في قرن هنا وقرن هناك، لكنها تلتقي هناك في روح العالم. ولا أدري لماذا أرى روحَ العالم، كأنني أرى الماء فوق جبل ما، كأنه مقهى، أو نادٍ، أو مكتبة، أو حديقة يتعانق فيها الهواء البري مع الأرواح التي صفتْ وأخذتْ... هل تتناقش أم تتواصل أم تمتزج أم تساعد بعضها البعض على أن تُبرزَ نقاطَ الاتصالِ، نقاطَ التجاوب، نقاطَ التشابه، نقاط الصعود، نقاطَ العُلُوِّ. لا أعرف كيف أصف المشهد، لكنني أرى نفسي هناك.

المشهد ليس ضبابيًّا، ليس نورًا صناعيًّا، ولا نورًا شمسيًّا، ولا نورًا قمريًّا. إضاءة كأنها الظلال. العلاقة بين الإضاءة والصور والأشخاص تشبه العلاقة بين ذلك الظل المحروق بالنسبة لي أنا الذي كنتُ أقف أمام اللوحة لأرى نفسي ذلك الظلَّ المحروق، أو أنه هو أنا بالفعل عندما وقفتُ كموديل أمام ذلك الرسام الذي من بلد بعيدة. العلاقة بين الهواء المحروق والشخص الذي حتى لو كان بلا جسد الذي يتأمل اللوحة هي نفس العلاقة بين ذلك الضوء أعلاه فوق الجبل والضوء المتعارف عليه، سواء أكان ربانِيًّا أم صناعيًّا، وكذلك الأشخاص هناك، ليسوا أجسادًا كما أنا الآن، وليسوا ظلالًا، هم في مرحلة وسطى بين الظلال والأجساد، لماذا أحسُّ الآن بأن ذلك الضوء ينبعث منَّا، أو منهم، هل أنا بينهم؟ أم أنا أراهم؟ أم...؟

ليس الأمر مسألة اختلاط ذاكرة، أو فقدان ذاكرة، فالمشهد ليس في ذاكرتي ههههههههههه ولكن الذاكرة أيضا تمزج المشاهد كما يحلو لها، هل هذا المشهد في ذاكرتي؟ هل هو جزء من ماضيّ؟ أم أنني أراه هناك وكأنني أنام على ظهري خارج بيتي في ليلة صيف، ربما بعد منتصف الليل، وأتأمل السماء، فأجد أن نورًا ما يشبه... ليس نورًا... ما الفرق بين الضوء والنور؟ هل نقول "صدى نور"، كالذي تجده في بعض الأسماك مثل قنديل البحر؟ السمكة الانسيابية، السمكة السائلة. أجد... لا أعرف إن كان جسدي أم جسدٌ آخر داخل جسدي أم ظلَّ جسدي أم ظل روحي يصعد لذلك النور، وكأنه مُوازٍ لجسمي تمامًا، وإن كان أقل سُمْكًا، يصعد نحو السماء! أنا النائم أو المتمدد على الأرض وأتأمل السماء أراه يصعد، وهو... لا أستطيع أن أقول عنه "هو"، وأنا أيضا – بينما أصعدُ – أنظر إلى جسدي... لا أعرف بالضبط هل هو جسدي أم جزء من جسدي؟ هل أنا الصاعد جسدٌ أم

روحٌ؟ هل صعدتُ بجسدي لأعلى وتركتُ جسدي في الأسفل؟ لا أعرف بالضبط. أبتسم له، وكأنني أقول له:

- لا تقلق. سأصعد في نزهة أو لجلسة فوق ذلك الجبل وأعود إليك.

أخذتُ أحلّق كفراشة. لم... ماذا يقولون؟ يقول الله فيما معناه "كالذي يصَّعَّدُ إلى السماء"، القلب الضيق، القلب الحَرِجُ، هل هذا اسم من الذي يشعر بالضيق أو الحَرَج، الذي يصَّعَّد إلى السماء؟ لم أشعر بأنني أصَّعَّدُ إلى السماء، كأن الصعود ذاته أو ضيق الصدر، سمِّه ما شئت، يجعل عملية الصعود صعبة. أنا لم أشعر بذلك.

كنتُ كفراشة، أو كنتُ فراشة بالفعل، وكنتُ – وأنا في طور الفراشة، ولا يأتي أحد ليقول لي إن الفراشة عمرها قصير أو شيء من هذا القبيل – أشعر كأنني عشتُ الزمن كله من أوله، أو ربما كنتُ أشعر أنني الزمن، ذاكرتي مليئة بأشياء كثيرة. لا أحس بالغرابة عندما كنتُ أرى شيئًا ربما ستنظر إليه الفراشة ذاتها على أنه جديد. كل شيء مألوف بالنسبة لي: سَكِينَة، سلام، كأنني كل التناغم، أو كأنني نغمة تنسجم في لحن الكون ذاته...

وأنا فراشة كنتُ أحسُّ أيضًا بأنني ذلك النور أو ذلك الجسد الذي يصعد، كنتُ أحسُّ أيضًا بأنني ذلك الجسد الذي يضطجع ويتأمل السماء، كنتُ أحسُّ بأنني كل تلك الأشياء التي تسكن كل الروايات والتي أتذكَّرُها الآن وأنا أروي كل ذلك، ولا أدري إن كان كل ذلك حدث في المستقبل أم في الماضي أم يحدث الآن. هي ذاكرة امتزاجية، ومن الواضح أنني أيضا راوٍ امتزاجي، مزجيٌّ، برزخيّ، لا أعرف اللفظ بالضبط، كأنه تمتزج كل الحالات عنده، كأنها تنبع من ذلك اللحن الكوني، كلها تنهل من ذلك اللحن الكوني الذي ليس تجريدًا أو فكرةً أو... لا أعرف بالضبط،

لكنني كنتُ أرى اللحن، أو ها أنا أراه بالفعل، أنا كفراشة أرى اللحن مثلما رأيتُ نفسي من قبل هواء محروقًا أو شُوبًا أو صَهْدًا أو كما كنتُ متعلِّقًا بنظرة في انتظارها منذ عشرات السنوات إلى أن وقعتْ عليَّ عينُ ذلك الراوي، ذلك الصدى، وربما وقعتْ عليّ عيني أنا أيضًا عندما كانت الظلال تصارعني وأصارعها، أو كانت ظلالي تتصارع مع بعضها فرأيتُني بعيون كثيرة.

هل كنتُ في حاجة إلى نظرة الراوي ونظرة الصدى ونظرة عيوني وظلالي كي أعود، وها أنا أحلِّقُ فراشةً وأرى اللحنَ جسدًا؟ هل نسميه جسدًا؟ لا أظنُّ أنَّ الجسدَ يناسبُ تجسيدَ ذلك الخيطِ أو النُّورِ أو الشُّعَاعِ أو... الذي يمتد في الكون كله وينغرس في الأرض كذلك. جسد، روح، لا، ليس هذا ولا ذاك، هو ذلك النور الذي كان صاعدًا قبل أن أتحوَّلَ إلى فراشةٍ أو الذي كنتُه قبل أن أتحوَّلَ إلى فراشة، وفيه أيضًا صدى من ذلك الجسد. الفراشة فيها صدى من ذلك النور، والنور فيه صدى من ذلك الجسد، والجسد فيه صدى من تلك الأجساد والأرواح المبعثرة في الروايات والقصص وفي لوحات الرسامين وفي حكايات الذين يسيرون في الأرض.

ما اللفظ الذي يمكننا أن نستخدمه لنصفَ اجتماعَ أو امتزاجَ أو انصهارَ أو انسيابَ أو سيولةَ أو تدفُّقَ أو برزخيَّةَ أو... كل هذه... هل نسمِّيها الأشياءَ؟ لا يَصحُّ، كل هذه الحالات مع بعضها البعض أو ببعضها البعض. قرأت لجمال الجزيري ذات مرة كلامًا يقول فيه إن اللغة عاجزة عن أن تنقل المعنى بشفافية، وها أن أعجز عن أن أجمع لفظًا يدل على هذه الحالة. فلنسمّها رؤية النغم؟ أو نغم العين؟ نغمية الرؤية؟ رؤيوية النغم؟ كأنك تجمع الحواس كلها في كلمة واحدة غير كلمة حاسة أو كلمة حسية. ليست الحواس الخمس فقط، ربما عشرات الحواس التي

تجتمع مع بعضها وتنصهر. ذلك النغم، إنه ذلك النور أعلاه، وما بين الظلية والجسدية، ظل، جسد، مادة وظل، فلتبحث اللغة عن مفرداتها، لا بد أن اللغة في يوم ما ستمتزج مفرداتها ويستطيع ناقد أو كاتب أو قارئ عندما يغمض عينيه أن يبصر تلك الكلمة التي لا أستطيع العثور عليها الآن.

أقول "الآن" وسيقول من يتوقَّف عندنا، نعم عندنا، نحن أصوات كثيرة الآن، ومن المؤكد أننا نشكِّلُ مجموعةً، فريقًا، عائلةً، شِلَّةً، نهرًا، ربما يحتاجُ تواجُدُنا ذاته إلى تسمية أخرى، وكأننا جالسون جميعا فوق ذلك الجبل، ولا أعرف هل أرى ذلك الجبل لأنني قرأتُ أو وجدتُ الجبل متجسِّدًا في كتابات جمال الجزيري: في "طقوس العبور"، كان الراوي يجلس فوق جبل، في "وقود الحركة" كان الراوي فوق الجبل، ويذكر أن عام ٢٠١٨ أو ٢٠١٩ سيكون جميلًا أو نقطةَ تحوُّلٍ، وهو يعشق نقاط التحولات. هل أراني وأرى آخرين فوق الجبل في تلك الكافيتريا أو النادي أو... لا أعرف كيف أسميها، التي أجد بها ظلال غريبة لا أجد لها اسمًا، ونحن نوجد فيها ولسنا في حالة الفراشة، فها أنا أتحول مرة أخرى إلى جسد، ظل أو نور، ثم أراني أندمج معهم أو معنا، لا أعرف إن كان الأصح ضمير الغائب أم ضمير المتكلم، لكن من المؤكد أننا نلتقي جميعا حول هدف واحد، هل يجمعنا هدف أم أن وجودنا جميعا في ذلك المكان في حد ذاته هدف؟ ما معنى الهدف أساسًا؟ أنا أحسُّ أنني... لا أعرف... ربما نسميه هاتفًا، هاتف يجمّع هذه الأصوات، هو الذي تتجسد فيه هذه الشخصيات، هؤلاء الأشخاص، هو الذي استعمَلَه الراوي لينظر من خلاله بمنظاره ويرى، كي أبدأ أنا في التحول إلى حالتي الآن...

ما معنى "الآن"؟ وأيُ حالةٍ؟ تحوَّلْتُ على الأقل إلى عَشْرِ حالاتٍ منذ أن وقعَ نظرُه عليَّ هو والصدى، دعك من الحالتين السابقتين: ما قبل الصخرة ومرحلة التحنيط. مرحلة الظلال المتصارعة. مرحلة الجسد الذي يحاول أن يتذكر. مرحلة الصراع وسوء الفهم بيني وبين التفاحة. مرحلة رؤية نفسي في أكثر من مكان: في تلك الصحراء، في ذلك البيت المهجور، في تلك القرية المهجورة بالكامل على امتداد أسوان غربًا، في الواحات، في السودان، هذه تجسدات. بعد ذلك وأنا نائم أمام بيتٍ عامرٍ في قرية من القرى وحولي الغيط، والقرية هنا بمعنى البيوت المتناثرة وسط الغيطان، وليست التي تتجمع في مكان واحد. صعودي في هيئة أخرى، أو كأنني انقسمتُ إلى اثنين: شخص أو كائن نائم على الأرض ويتأمل السماء. كائن آخر يصعد منه، وهذه مرحلة أخرى. مرحلة الفراشة. مرحلة الهاتف، ما بين الظلال والأجساد، كأن هذه الرواية يُفترَض أنها أوشكت الآن على الاكتمال، ولكنها ملفات صوتية متناثرة على أصوات مختلفة.

هل الأصل هو الصوت ثم يأتي القلم مثلا؟ وهل الصوت هو الصدى أم هو الإنسان ذاته أم هو روحه أم هو مزيج بين هؤلاء وبين جسده أيضا، وكأنه برزخ تصبُّ فيه جميع الروافد وتلتقي ويبغي الجميع على بعضهم البعض في سبيل الاندماج أو الانصهار أو الامتزاج، كما قال جمال الجزيري في إحدى قصائده ربما، في الملف الموجود بالقرب من الملف الذي أسجله الآن على هاتفه؟

الصوت امتزاج لكل هذا. والصوت هو الوجه، هو ما يتبقى من الإنسان، هو عزيمته، هو صداه، هو ما سيبقى منه، هو الرؤيا، هو الوعي، هو الكشف، هو التجلِّي، هو الذي ينقل ما تراه العين المغمضة حتى لو لم يستطع أن ينقله كاملًا لعجز اللغة أو ضياع المفردات أو الخسائر المتوقعة عندما تنتقل الحالة من مرحلة

الرؤية في الظلام – أي أن تراها العين وهي مغمضة وتعيش في عالم آخر عبر حواس مختلفة. عندما ينتقل هذا من وسيط يجمع كل الحواس إلى وسيط كتابي قد يفقد أشياء كثيرة، وربما ميزة ما نفعله الآن أنه سيكون فيه قدر من الشفاهية التي ستعطي قَدْرًا أيضا من الحيويَّةِ للرِّوايةِ وتجعلها متميّزَةً. فعندما تغمض الشخصية – سأعتبر نفسي بالطبع شخصية، فلا سبيل إلى غير ذلك – عينيها، تبدأ في رؤية عالمها كأنه يتشكّل أمامها. فالظلام هو الموضع الذي تستطيع أن تعمل عليه شاشة عرض البصيرة والبصر أيضًا، شاشة عرض جميع الحواس. هنا تترك الشخصية نفسها لما ترى، وتحاول أن تنقله بكل حيويته.

يبدو، أو ليس يبدو، أنا بالفعل أجدُني في هذه الأيام القلائل التي ربما تحسبها أيها القارئ أو المستمع – لا أدري حالتك – بالشهور أو بالسنين، وجدتُ أنني أعيش عشرات الحيوات، هل هي الحيوات أم الحيوان أم أن كلمة الحيوان هي الحياة بشكلها الخالص؟ وأظن أنها ترتبط. قد يكون هذا الوصف جميلًا، وصف ذلك المشهد أعلى الجبل، الحيوان، الحياة في خلاصتها، في امتزاجها، في تنوُّعِ روافدها. لكن لو قلنا "الحيوان" فقط، سنجد أن هذا اللفظ احتفظت به اللغة العربية المجيدة لكائنات ترى أنها أدنى من الإنسان، وهذا الحيوان الذي أراه فوق الجبل – هل الحيوان هنا مذكر أم مؤنث أم جمع؟ لا أعرف – هو ذلك الهاتف، ذلك الإغماض للعين والانفتاح للرؤية، هل نسميه هاتفًا، إغماض الحيوان، أم هاتِفَ حيوانٍ مغمضٍ، أظن أن هذا ذاته يصلح عنوانا للرواية: هاتف حيوان مغمض. "مغمض" ثقيلة نوعا ما، ولو حولناها إلى غامض، بمعنى هو الذي يُغْمِض سيفهمونها بمعنى الغموض الذي هو عدم الوضوح. ألم أقل لكم إن اللغة تذهب بك إلى البحر الذي هو النيل وتعود بك عطشانًا؟

الراوي

لم أتوقَّعْ أنْ يصلَ الأمرُ إلى هذا الحدِّ، وكأنني نزلتُ على مدينة لا أعرف فيها أو عنها شيئًا، وكأنني كنت فاقدا لذاكرتي لسنوات طويلة وعادت لي ذاكرتي فجأة لأكتشف أنها كانت في كهف، وها هي تُفَاجَأُ بما تراه أمامها ولا تذكر عنه شيئًا!

جولة واحدة في الشوارع تكفي، هل يصح أن نطلق عليها اسم شوارع، أم نختصر الاسم والمفهوم لتصير أزقة، ممرات، مسالك، أي شيء يوحي بالضيق، يوحي بالاختناق، يوحي بالابتسار بعد البراح والامتداد والوعد، يوحي باغتراب الشخص في المكان الذي يألفه جيِّدًا، واغترابه عنه، بالرغم من أنه يسير فيه، وكأن المكان قد تحول من رحم إلى كهف، إلى فوهة هاوية أو فوهة مجاري صرفٍ صحِّيٍّ تهدد بابتلاعه إلى الأبد، من دون أن تتيح له فرصةً للتنفُّسِ أو الإحساسِ بالألفة، فها هي الشوارع الواسعة يتحول عرضها إلى مترين على الأكثر، بحيث تسير فيها سيارة واحدة، في حين أنها كانت تكفي من قبل لسير ثلاث سيارات على الأقل بجانب بعضها البعض، كلٌّ يفترش ما أمامه، سواء أكان مَحَلًّا أم بَيْتًا أم أيَّ شيءٍ، وكأن هذا التوسُّعَ الافتراشي سرطانٌ التَهَمَ البيوتَ والمباني، فانتفختْ وتورَّمتْ وتفشّتْ، أو أنها مجاري طفحتْ في الشوارع، دون أن تكون هناك هيئة صرف صحّيٍّ أو أي هيئة يمكنها أن تفعل شيئًا.

هل انتقل المنظارُ إلى الشوارع أيضًا؟ لماذا أحسُّ بأن هذه الشوارع أرواحُها زاهقة؟ لماذا أحسُّ بأنني انتقلتُ من صورة كانت واسعة في ذاكرتي قبل سفري إلى صورة ضيقة جدا الآن بعد مجيئي من السفر؟ هل أنا الآن – وأنا في هذه الشوارع – مثل ذلك الرجل الذي ظهر لي في المنظار، أو الذي أظهره المنظار، أو الذي التقتْ

عيني بعينه فنهض من مرقده؟ ولكنني كنتُ أحاوره في المنظار، أو كنتُ أنقل عنه بثًّا صوتيًّا على الهواء مباشرة. وها هو الصمتُ هنا يتحوّل إلى نجاة. لساني انفرط مرة واحدة، وقلتُ مازحًا لأحد الذين يفترشون الشارع ببضاعتهم المتضاربة:

- ماذا بك يا عم؟ أين سيسير الناسُ؟

فسبَّ لي ديني ودين الشارع ودين البلد ودين الناس كلها، وقال مهدِّدًا:

- أستمشي من هنا أم أُدخِلُ هذه السكين في بطنك، ولن يظهر لك صاحبٌ، ولن ينجدك أحد؟! هذا ما تعلّمناه من الحكومة، وكل واحد منّا الآن حكومة لوحده، هيّا ابحث عن حكومتك وابتعد عنّي وإلا غرزتُ هذا السكين في بطنك!! أتفهم؟!

صمتُّ، وأنجاني صمتي أو سيري الصامت من مشاجرات هنا وهناك في الشارع، كأن الغضب ينفجر بالجميع ليتشاجروا على أي شيء وبلا مبرر، وكأن الشجار هدف في حد ذاته. ابتسمتُ في داخلي ابتسامةً مُرَّة حرصتُ على ألا تظهر على شفتيّ أو وجهي، كي لا تدخل في بطني سكين أو أُعَلَّقَ في محل جزارة، فمن الواضح أنه لا يوجد أي فرد من أفراد الأمن بالشارع، وكأن البلد كلها صارت بلا ضابط وبلا رابط وبلا رقيب، مع أنني أعرف غير ذلك في سياق غير ذلك، ولكن للشارع منطقه وللفوضى منطقها، ومن يقدر أن يقف في وجه تيار كاسح لا يعرفُ مصدَرَه؟!!

هذا الغضب في كل مكان منذرٌ بالانفجار الوشيك، منذر بأن أسباب الغضب صارت فوق طاقة الاحتمال، وأن الانفجار – عندما يحدث – سيكون كالهواء المبلل ببنزين لا أعرف مصدره، لكنَّ عُودَ كبريتٍ واحدًا سيكون كافيًا لأن يشعل الشوارع كلها بحريق قد لا يُبْقِي شيئًا، وأجدني أضع يدي على قلبي، ولا أستطيع أن أطرد

هواجسي وتوجّساتي ومخاوفي مما سيكون، خوفي على كل شيء وكل أحد، بمن فيهم ذلك الذي سبَّني. يبدو أن كل شخص غائب عن ذاته، كل شيء غائب عن ذاته، بلا رقيب وبلا التقاء وبلا أمل، وها أنا أتذكر "وقود الحركة أو الموعد الآخر"، تلك الرواية التي وضعني فيها جمال الجزيري راويًا منذ سنوات قليلة، وها أنا أجدني هنا أشبه ذلك الراوي هناك، وأحس برائحة البنزين في أنفي لا تفارقني، وأخشى أن أكون أنا ذاتي عود كبريت، وأخشى على ذلك الرجل الذي كشف عنه المنظار، فمن الواضح أن الصهد هناك امتداد لِهُنَا، وأننا جميعا قابلون للاشتعال في أية لحظة، وما يجعلني أقل قابلية للاحتراق من الآخرين أنني قادم من سفر ولا أعيش "الحياة"/ الموات هنا بكافة تفاصيله، فأعرف أنني سأعود إلى الغربة من جديد، وأعرف أن الوضع لا يحتمل، وأعرف أن كل شخص قد يتحول فجأة إلى علبة كبريت كاملة، ولا يهم إن أحرق نفسه أو غيره، فعند البركان لا يتميز أحد عن آخر، لا يتميز شيء عن آخر، وسيكون كل شخص وكل شيء ضحية وجانيًا في الوقت ذاته...

كنتُ قد خرجتُ إلى ميدان الجيزة لأتسوّق وأسير في الشوارع القديمة، إذ أنها تذكِّرُني بالحميمية، بالذكريات، بالخطوات القديمة في الشوارع نفسها، وكأن هذه الخطوات تُبْعِدُ الغربةَ جانبًا عندما تعود من الذاكرة على وقع خطوات جديدة في الأماكن نفسها، لكنني كأنني تلقَّيتُ ضربة حازمة صارمة على رأسي وقلبي، إذ اختفت الشوارع، وحلَّت محلها بضائع مفروشة على الأرصفة والأسفلت، بضائع تطاردُ نسمات الهواء وتطارد الخطوات وتطارد الذكريات، فعادت الذكريات إلى دهاليز ذاكرتي منكسرةً متوحّدَةً منفصمةً.

لم يقتصر الأمر على الشوارع القديمة، فها هو العجب العُجاب في المدينة الجديدة التي بها الشقة التي جئنا إلى سطحها. يمكنك أن تتوقع مثلا ألا ترى أحدًا

في الشارع، يمكنك أن تتوقع على سبيل المثال قلة المحلات والبقالات، يمكنك أن تتوقع ندرة المواصلات، يمكنك أن تتوقع قلة عدد السكان في الشقق، لأنها مدينة جديدة. لكنك لن تجد أي شيء من هذا، فالشوارع ممتلئة، المواصلات موجودة، الشقق مسكونة، ولا تعرف كيف يشكو الناس من ارتفاع أسعار السكن وفي الوقت ذاته لا توجد شقة واحدة خالية!

هذا لا يهمنا على أية حال، فالظاهرة الغريبة التي وجدتُها – بالإضافة إلى رفع أصحاب المحلات الأسعارَ بزيادة كبيرة جدا بالمقارنة بما يوجد في أسواق ميدان الجيزة على سبيل المثال – الحرّاس والبوابون يحتلون كلَّ شيء، كأنَّهم هم أصحابها، وكأنَّ السكّانَ حرّاسٌ عليهم وعلى كلابهم وعلى مسروقاتهم، فكل بوَّاب أو حارس اصطحب زوجته وأبناءه وبناته من الأرياف، من الوجه القبلي أو الوجه البحري، أو من أحياء القاهرة والجيزة، ولا يوجد سكن لهم إلا غرفة في بدروم كل عمارة على ما يبدو، وكلٌّ اقتنى له كلبًا أو كلبين أو ثلاثةً، ويمكن أن يتزايد العدد باستمرار، وأكثر ما تلاحظه عدد أطفال البوابين والحراس الذين يتبوَّلون ويتبرزون في الشارع، وربما يمشون عراةً، وبجانبهم كلابهم تحرسهم، وكأن أصحاب الشقق هم الغرباء، فتنبح الكلاب عليهم. ظننتُ أن الأمر معي أنا فقط في البداية، لأنني غريب أو قادم من سفر، لكنني وجدتُ الكلاب تنبح أيضا على أشخاص يخرجون من شققهم في الصباح ذاهبين إلى أعمالهم، ومن الواضح أنهم مستقرون في شققهم، ومن المفترض أن الكلاب اعتادت عليهم.

هل هؤلاء حراس أم أنهم ينوون احتلال هذه المدينة الجديدة وطرد سكانها؟ أو ربما يظنون أنهم سيطهّرون هذه المدينة الجديدة من السكان ويظلون هم حرَّاسًا على أنفسهم، أصحابًا للمكان، أصحابًا للزمان، وربما يتكاثر أطفالهم تلقائيًا في

الشوارع، وتتكاثر كلابهم تلقائيًّا في الشوارع، إلى أن تصير مدينة الحرّاس والأطفالِ والكلاب، وأخشى ألا أستطيع أن أجيء هنا بعد ذلك، وكأنّ سكنَ مُؤّلفي عليّ حرامٌ، وكأن هذا المؤلف ذاته لن يستطيع أن يدخل شقته بعد الآن. ويبدو من الوضع العام أنَّ شيئًا ما يستفحل، لا أعرف ما هو، لكن ذلك السرطان في شوارع الجيزة، وذلك الضيقَ فيها، وتلك الكلابَ هنا، وهؤلاء الأطفالَ هنا، وهؤلاء البوابين والحرّاس هنا، يقولون ضمنيًّا بأن الضباب سيِّدٌ، وأن الصورة ليست قاتمة، بل شديدة القتامة، لدرجة أنها لا تظهر فيها معالمُ يمكن للمرء أن يطمئن إليها أو يستبشر من خلالها ببشرى قريبة أو بعيدة أو حتى ببشرى في حلم قد يتحقق في يوم من الأيام.

ربما أدركُ الآن العلاقة بين ما يكشفه المنظار وهذه المدينة الجديدة، وربما بكل المدن والقرى والشوارع والطُّرُق، هل كان المنظار يغوص فيما وراء السطح ليكشف ما خلفه؟ لماذا أحسُّ بأن الأرض كلها تسبح فوق بركان قد يندلع في أي لحظة؟ لماذا أبصر الآن ذلك الصهد الذي في المنظار على أنه بخار للغليان في ذلك البركان؟ لماذا أشتاق الآن إلى ذلك الرجل وتلك الشجرة وتلك التفاحة وأنا أسير وسط هذه الشوارع؟ يبدو أنني أريدُ أنْ أَطْمَئِنَّ، أنْ أُبْصِرَ وراء المنظارَ عالَمًا يتشكَّلُ حياةً، بدلًا من هذا الموات البادي، بدلا من هذا البركان الذي سيندلع، أكاد أتيقّن من اندلاعه، فينقبض قلبي، تعصف بي بصيرتي، وتريني ما لا أودُّ أن أراه، فأنفض رأسي بشدة، فربما تخلصت من بعض زوايا هذه الصورة، وأسارع الخطى نحو باب العمارة لأصعدَ إلى السَّطْحِ...

الهواء المحروق

- لا تقتلْها يا ولدي.
- فقط ألعبُ معها يا أمي. أشكّل يديّ مثل جناحيها وأحرّكهما حولها.
- لكنَّ لعْبَكَ يزهقُ روحَها. الفراشة أجنحتها شفّافة يا ولدي.
- وأنا أريد أن أعانق هذه الشفافية يا أمي. أحسُّ بأنني أطير مثلها، وكأنني صرتُ خفيفًا ورشيقًا وطائرًا. ألوانُها تجذبُ عينيّ، ونورُها نورُ عينيّ، نورٌ أراه ولا أراه، كأنه داخلي، أو كأنه في عالم آخر، ولا أعرف كيف أراه وأنا هنا أتطاير وراءها، كأنني أصطادها، أو كأنها تصطادني، أو كأنها هي التي تطاردني بالرغم من أنني أنا الذي أجري وراءها.

أرقد على كومة زلط ورمال أمام بيتٍ لم يستطع ثمنُ المحصول أن يُكمل شراء الحديد حتى تنتهي الصبَّة. أجنحة وامضة تتطاير فوق عينيّ، بالرغم من أن الكهرباء هاربة أو مقطوعة، والهلال تلاشى في آخر الشهر. وميضٌ كأنه يناديني، هل هو إحساس بالذنب أم تعذيب؟ لم أكن أقصد أن تتلاشى روح الفراشة بين يديّ. كنتُ ألعبُ معها، وأحسُّ بأنني خفيفٌ مثلها. هل أعطتْني خفَّتَها فتلاشتْ روحُها؟ أم أنَّ خِفَّتِي كانتْ ثقيلةً عليها فلم تحتملْها وفارقتْني؟ فارقتْني هكذا بكل بساطة، وها هو نورها الآن يؤرقني، فلا هو امتدَّ ليصل قلبي، ولا هو بدَّد ذلك الظلامَ الذي يكتم أنفاسي. نورٌ يهبط كأنه طائرة أو طائر ينطلق نحو الأرض ليلتقطَ شيئًا أو يصيبَ هدفًا أو... ثم يعود النورُ لأعلى، فتتوزع نظراتُ قلبي ما بين الهبوط والصعود، ما بين السقوط والتبخُّر، كأنني لا شيء، أو كأنني مربوطٌ بالأرض دون أن أستطيع أن أتحرك أو أعلو، وكأنني كل هذا السكون في آخر ليلٍ لا يبشِّرُ بفجرٍ قادمٍ.

من أين جاء هذا الكلب الذي يلحس جسمي في الظلام؟ باب السورِ مغلقٌ، كما أن أهالي القرية لا يُرَبُّونَ الكلابَ، فلا يدخل القرية غريبٌ، ولا يجرؤ معتدٍ على أن يخطوَ خطوةً واحدةً من على تلك التُّرْعَةِ نحو مدخل القرية. كلبٌ كأنه يسكب على أسفل ظهري كوبَ ماء. أفتح عيني وأستدير. شخصٌ يتسلَّلُ بعيدًا كثعبانٍ أدركَ أن فأسًا ستنهال على رأسه. هل هو أخي؟ كيف أصدّق؟ وكيف أهوي بالزلط على رأسه؟

لن أنام على الزلط المُشاع هكذا مرة أخرى. لا بد من دكّةٍ أنام عليها ولا يمكن لأحد أن ينام بجواري، فلا يوجد له مكان أصلًا. يقول شيخ الجامع إن من ينام على ظهره متكبّرٌ، وهل المتكبّر يحس بالذنب هكذا؟ هل المتكبّر تؤرقه أجنحة فراشات بلا جسد تتطاير فوقه هكذا كل ليلة، سواء أحضر القمرُ أم غاب؟ يبدو أن ذلك الشيخ لا يعرف لغة الفراشات ولا كيدَ الفراشات، ولا تأنيبَ الفراشات، يبدو أنه لا يراها، ولا يعرف ما هي. أجنحة لا تمكن رؤيتها إلا على أنها نورٌ، جناح يرفرف بالطول، جناح يرفرف بالعرض، جناح يُسرع نحو اليسار، جناح يسرع نحو اليمين، جناح يهبط حتى أكاد أحسُّه يدخل بعينيّ، وسرعان ما يتركني ويكمل مكايدتَه. أمدُّ يدي ولا أستطيعُ أنَ أُمْسِكَ شيئًا، كأن الفراشة هربتْ منّي للأبد، وتركتْ أجنحتَها المرفرفة تؤرقني، أو تحاكمني، أو تسجنني في وجعي، دون أن يتركني الوجع أو حتى يصعد ليرفرفَ هو الآخر ويزيد عذابي أو ينقصه!

أليس النوم على الظَّهْرِ تحصُّنًا أحيانًا؟ أليس وقايةً من إخوةٍ أو كلابٍ أو أشخاصٍ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون عكس ما يقولون؟ كأن شيئا اغتصب الجسد، فخرجت الروح منه معذَّبَةً، وهامت على روحها، روح تهيم على روح، وتجوب الآفاق تائهة، إلى أن تجد نفسها ترتفع إلى ما فوق الجبل، وتلتحم هنا

بالنور، ترافق الأرواحَ المعذَّبَة، الأرواح التي هجرها جسدها أو هجرتْ جسدَها، أو أحسَّت بالبتر، بالاعتداء، بالانتهاك، فانطوتْ على نفسها، وأخذتْ ترتفعُ وترتفعُ إلى أن عثرتْ على أليفاتها، وليفاتها، توائمها المنفصلة عن أجساد أخرى، التي لم تجد لها برزخا تلتقي فيه مع روح تألفها، فصعدوا جميعا على فترات، كل حسب حالته، حسب حالتها، وابتدأ اللقاء، ابتدأ العذاب، ابتدأ مجلس الأنس والتذكر وتداول الحكايات هناك فوق الجبل، هنا فوق الجبل...

ما هذا؟ الأجنحة تتجمّع وتشكّل فراشة كبيرة، ليست ضخمة ولكنها كبيرة، ما الفرق بين الضخامة والكبر؟ ليس جسمُها سميكًا، ولكنها ممتدة في المكان بالطول والعرض، دون الارتفاع، وها هو النور يتَّخذُ لونًا أشبه بالفيروزي، بالأزرق الناصع، بالـ.. لا أعرف كيف أصفه، لكنه نور متوهج وامض أزرق ناصع أو زاهٍ، ليس زاهيًا بمعنى ناصعًا، ولكنه زاه بمعنى أزرق متألق متوهّج، أزرق يقول لك:

- أنا الأزرق.

بالألف واللام، ولا أستطيع أن أقول له:

- أنا الجمرُ، أنا روح تحترق على الدكة دون أن تستطيع أن تكفّر عن ذنب، دون أن تستطيع أن تصدَّ أو تثأرَ لذنبٍ من أخٍ تجبَّر فلا تستطيع أن تمسك فأسًا لتقطع به رقبته.

أنا الأزرق، أنا الجمر، وتقول الفراشة:

- أنا الحياة، أنا حياة تؤرّقك، تعذّبُك، دون أن تستطيع أن تعانقها، ألم تقتُلْني؟ لمْ تقتلني، ولكنك قتلت نفسك، حكمتَ على نفسك بالتيه، هل تحتمل أربعين عاما حتى تستعيد نفسك؟ يمكنك أن تزيد تيهك كما تشاء، أربعين، خمسين، ستين، تحنَّطْ، تصحَّرْ، تصخَّرْ، تسلَّطْ، خذْ الشكل الذي تريده، لكنك

في كل الحالات ستكون جمادًا. لستُ فراشة ساحرةً. ولا أستطيع أن أسخطَكَ، لكنّ تيهك سيسخطُكَ، وساعتها قد تنتقل فوق ذلك الجبل...

وأشارتْ بأجنحتها إلى مكان لا أراه، ولكنه يرتفع بزاوية حادة بجانبي، وكأنه فوق تلك السحابة، كأنه جبل فوق سحاب لا يظهر الآن، وربما كان الجبل قمة لم يستطع أحد اكتشافها حتى الآن. وما أن أشارتِ الفراشةُ إلى الجبل حتى تلاشتْ تمامًا كأنها لم تكن تتطاير فوقي، وبدأتْ تتشكل مكانها ألوانٌ متضاربة، ألوان فاقعة، ألوان باهتة، ألوان غامقة، ألوان كأنها بلا روح، ألوان كأنها عنفوان، ألوان كأنها الجبروت، ألوان كأنها الانسياب، كأنها الشفافية، ولا أعرف كيف تجمّعتْ كلُّ هذه الألوان وكأنها تريد أن تُشَتِّتَ نظري لأدخلَ في مرحلة التيه التي قالت عنها الفراشة ومضتْ.

هل أنا تائه؟ ما لي أحسُّ بأن جسمي يتلاشى؟ بأنني أتوحَّدُ مع خشب الدكة؟ أتحسَّسُ جسمي، ولا أستطيع أن ألمس سوى الخشب! ماذا ستقول أمي في الصباح؟ ماذا سيقول أبي؟ كيف سيكون رد فعل ذلك الكلب أو الأفعى؟ هل ستأتي الفراشة غدا؟ هل سأكون أنا هنا غدا؟ ماذا لو أكل السوسُ خشبَ الدكةِ وأكلني؟ ماذا لو جاء الشتاء وأشعلوا النار بالدكة ليستدفئوا بها؟

لا أدري، كأنني صرتُ بلا إرادة: لا أستطيع أن أُصدر أمرًا لجسمي، لا أستطيع أن أحرِّكَ شيئًا! عندما أقاوم أجد الدكة أثقل من طاقتي، كيف أرفع نفسي؟ كيف أخرج من ذلك الخشب وأصير جسمًا وروحًا، حتى لو في عذابٍ كما كنتُ منذ قليل؟ هل الحركة فكرةٌ يمكنها أن تتلاشى في طي النسيان؟ أم أنها مادة يمكنني أن أصنعها، أن أشكّلها، أن أدفع بجسمي بعيدًا لأنفصلَ عن ذلك الخشب؟ خشبٌ خشب، وكيف لجسمي أن يتحنّط أو يتخشَّب هكذا؟! بماذا سأحسُّ؟ أو كيف

أتصرّف عندما يأتي أحد ويجلس على الدكة دون أن يراني أو يحس بي؟ كيف سأتعامل مع أناس لا يعطونني سوى مؤخِّراتٍ، وكأنني لستُ موجودًا، أو كأنني العدمُ ذاته، أو كأنني خشبٌ فعلًا؟ كيف أكون خشبًا وأنا أحس الآن بأنني خشب؟ هل الخشب يحسُّ أو يفكِّرُ أو يتخوَّفُ من مصيرِهِ؟ وكيف سأصير هكذا أربعين عاما أو خمسين عاما كما قالت تلك الفراشة؟ وتعرض عليّ بكل بساطة أن أزيد سنوات التيه كما يحلو لي!! لو كان سجنًا مؤَبّدًا لن تصل السنوات لذلك، على الأقل في السجن تعرف أنك ستخرج بعد فترة محددة، أما في حالتي الخشبية هذه فأنا لا أعرف أي شيء، لا أعرف كيف سأحوّل نفسي أو كيف سأخرج من حالة الخشب لحالة الإنسان، البشر، الكائن الحي. يناكدني الخشبُ:

- كنتُ مثلك كائنًا حيًّا، وها أنت بفأسك قطعْتَني وجَعَلْتَنِي جمادًا. كنتُ أظلِّلُكَ، ولكنك رفضتَ الظلَّ وفضَّلتَ الجلوسَ بمؤخرتك القذرة عليّ.

- كلنا في الخَشَبِيَّةِ سواءٌ الآن يا صديقي.

- الأيام شجرةٌ وخشبٌ. ألا تقول الأيام دول؟ في الأشجار وحتى الأخشاب لا نعرف الدول، نعرف الدوران، التحول، ربما في يوم ما أخرج أنا من التيه الذي وضعتَني أنتَ فيه وأعودُ شجرة كما كنتُ، حتى لو بعد إحراقي أنا وأنت سويًّا، حتى يستمتعَ أولئك الذين سيجدونك مستسلمًا في الصباح لحرارة النار. أنا وأنت في النار! وهم يستمتعون بنا! ما رأيك في أن نتركهم يحرقوننا ونتسلل برمادنا إلى الأرض ونبحث لنا عن بذرة ننبتُ في أعماقها؟ فكرة جميلة، أليست كذلك؟ على الأقل نقضي سنوات التيه متنقلين من شجرة لأخرى، أو حتى من نبتة لأخرى. ما لي أراك مرعوبًا هكذا؟ ألا يروق لك كلامي؟ على الأقل نفعل شيئًا، بدلًا من جمودنا هكذا، بالرغم من أنني وأنتَ قرينانِ الآن ولا يمكن لنا أن ننفصل، أكاد أراك صخرة تحت

شجرة جافة هي أنا؟ شجرة جافة! إحساس فظيع، أن تتحول أنتَ دون أن تمسَّكَ يدُ إنسان إلى خشب حياتُه متجمدة، لا يستطيع أن يمدَّ بُرعمًا، لا يستطيع أن يتراقص مع الهواء، لا يستطيع أن يُظَلِّلَ أحدًا، ولا أعرف لماذا أراه يسخر منك وأنت في حياتك الصخرية أسفله، كأن كلاكما عقابٌ للآخر، توبيخ للآخر، ضحية للآخر، كما أنا وأنت الآن: كل منا ضحية للآخر. أين أيام الخشب!! على الأقل الخشب لا يمتص الحرارة هكذا، على الأقل كنتُ أجدُ خَشَبًا ذَكَرًا آنس به، كنا نتأمل كل الحياة، ونحن نحاور بعضنا، ونحن نسخر من الذين يجلسون علينا بلامبالاة، من يتسلقوننا بلا مبالاة، كأنهم وارثونا عن أجدادهم الحمقى! ويا ويلك لو كان أحدهم قد أَكَلَ أَكْلَةً تُثِيرُ زوبعةً في بطنه، فنكاد نحن الخشبان نتهاوى من ثقل الروائح ومن عفن الأقدام، لكنهم لا يحسون بنا. عندما زحزحْنا رجلنا قليلا وقعوا على ظهورهم، ولكنهم عندما نهضوا وأعادوا وضع الدكة أرجعوا رجلنا إلى مكانها وظلوا يتبادلون النظرات الحائرة وينظرون إلينا بتأمل، كأنهم يفحصون خَلَلًا، فيبدؤون يشكُّون في أنفسهم ويواصلون ثرثرتهم، كأنهم يهربون من اكتشاف حمقهم أو رعونتهم أو جنونهم الوشيك!

لكنني الآن صخرة وسط رمال حارقة، ويبدو أن كل الأشجار، كل الطريق، انقطعتْ. صخرة تنظر بعيون بلهاء إلى ما هي متأكدة من أنه كان طريقا وكان خُضرة، ولكنه يبدو كهاوية، كحافة، فالصخرة عند طرف الرمال، وما تحتها الهاويةُ، شجرة جافة تمامًا، يبدو من شكلها أنها شجرة فاكهة، تفاح، برتقال، يوسفي، جوافة، رمان، تين! ولكنها بلا معالم، والغريب أنَّ عليها ثمارًا جافة من كل الأشكال والألوان والأنواع، وكأنها ليست شجرة واحدة، وإنما أشجار كثيرة متداخلة في بعضها البعض بجذر واحد ولا أعرف كيف! كأنها أم الشجر. ينبت الجذرُ الواحد

عشرات الأغصان المختلفة. أعرف الصنوبر. لا أذكر الآية بالضبط، لكن القرآن يتكلم عن جذر أو شجرتين نابعتين من نفس الجذر أو مغروستين في نفس التربة، وهذه فاكهتها مالحة وهذه حلوة، أو شيء من هذا القبيل. لكنني لم أقرأ أو أسمع عن عشرات الأغصان التي تنبع من جذر واحد وتثمر ثمارًا مختلفة عن ثمار بعضها البعض، وفي الوقت ذاته تبدو الشجرة منحنية كأنَّ هناك شيئًا يُثْقِلُها، لا أعرف إن كانت الشجرة تفكر أم لا، لكنْ يبدو أنَّ همًّا أو تفكيرًا أو جبروتًا أَثْقَلَها وجَعَلَها تنحني بانكسارٍ هكذا على وضع ثابت لا يؤثر فيها هواء ولا تؤثر فيها زوابع. وأنا أيضا ثابتٌ، قطعة صخر، حتى لو كان صخرًا مصقولًا أقرب للخزف المُصْمَت، ولا أعرف ما معنى الخزف المصمت، لكن هذا إحساسي الآن، كأن جسمي كله تم ضغطه في صخرة لا يتجاوز طولها نصف متر على الأكثر.

لو أنني ميّت ما همّني شيء، لكنني متوزِّع، بمعنى أنني أحس بكل الحرارة وكل الصهد وكل الشوب... حرارة تحرق الهواء وتجعل زُورَك جافًّا كأنه هو ذاته صخرة، زورك أنت طبعًا الذي أَصِفُ ذلك لك، فأنا جاف تمامًا، صخرة، هل تتوقع منها أن تكون مبتلة مثلا أو تستطيع أن تبلَّ ريقَها بشيء؟ لا، أنا أحاول أن أقرّبُ لك الوصفَ، أن تفهمه بلغتك، فلو قلتُ لك: "كإحساس صخرة ملقاة وسط رمال حارقة تضربها الشمس ليل نهار" لن تصدقني، "وليل نهار" في حد ذاته تعبير لن تصدقه. بالرغم من أنني أحس بالظلام وبتعاقب الشمس والقمر أو تعاقب الليل والنهار، أحس بالشمس الحارقة دائمًا.

والجَّانِبُ الآخرُ المتوزِّعُ يعني أنني أغادر صخرتي أو جسمي الصخري ولا أغادره، كيف يجتمع الاثنان؟ لا أعرف. أنا موجود في الصخرة وأحس بكل الحرارة، وفي الوقت ذاته أنا كائن بلا جسد تائه في البلدان يسير على الدوام بحثًا عن شيءٍ ما لا

يعرف ما هو، وفي الوقت ذاته لا يجده، وعليه أن يواصل السير. كيف فعلتْ ذلك تلك الفراشة الساحرة؟ ما معنى أن أتوه هكذا طوال سنوات لا أعرف ما عددها؟ عندما تحس بالشمس تحرقك طوال الوقت، لا تدرك معنى الزمن. عندما تسير هكذا على الدوام بحثًا عن شيء لا تعرفه أو لا تتذكره ولا تستطيع أن تتوقف عن السير، لا تعرف معنى الزمن، كأنك أنت الزمن ذاته في حركته، في ذاكرته الضعيفة، في يده الباطشة، في الفراشات المتساقطة منه، فيه وهو يلفحني ليل نهار، وأنا لا ألفحُ نفسي هكذا. إذا كنتُ أنا زمنًا يلفحني وأنا تلك الصخرة التي لا تفارقنا ولا أفارقها، فهل أنا ألفح نفسي؟ إحساس غريب وفظيع لا يُحتَمَل!

تخيَّلْ، لا بدَّ أن أقول لك تخيَّلْ، فمنطقك على الأقل سيقول إن ذلك نوع من الخيال، إنك في سَيْرِكَ هذا تتبع كلَّ الفراشات، تُقبِّلُ أجنحتَها، دون أن تلتفتَ لك فراشةٌ، أو تحسَّ بالامتنان أو العرفان أو الانبساط أو الرضا، وموقفها هذا يوافقها ولا تملُّ أنتَ من تقبيل كل أجنحة الفراشات، دون أن تقرِّبَ يدك الافتراضية منها خشية أن تتلاشى. تخيل أن تصفعك فراشةٌ دون أن تراك، كأنك لا شيء، ومع ذلك أنت تحس بكل شيء، كيف تكون لا شيء وكلَّ شيء في ذات الوقت؟ إحساس فظيع. أنت لا شيء وأنت تعي بكل شيء، وتعي بنفسك شيئًا أو كائنًا أو روحًا أو انطلاقًا أو سَيْرًا أو تيهًا أو ضياعًا أو عذابًا أو أرقًا أو تقبيلًا أو... أي شيء آخر. لكنك الشيء واللاشيء، أنت المحصور في تلك الصخرة وأنت التائه في البلدان. تخيَّلْ أنك تحاول أن تتوغل في روح الشجرة لتعتذر لها، أو تصيرَ غصنًا فيها وترفضك. وترفضك الطيور، ترفضك الأنهار، ترفضك الحشراتُ التي كنتَ لا تأبه بها، أو كنت تقتلها كأنها اللاشيء، تخيَّلْ أن يصل بك الأمر إلى أن ترمي بنفسك على جناح ذبابة علَّكَ

تستقر في جسد يستطيع الحركة ويجد نفسه بملامح، فترفضك الذبابة وتتركك لتقع في هاوية لا تحس بها، كأنك أنت هاوية في حد ذاتك والذبابة نجتْ منك.

ذات مرة وجدتُ رسَّامًا يجلس وسط حديقة بها مجرى ماء صغير، ربما للزينة، وربما يستخدم في ري أشجار. وجدتُه يضع منظارًا أمام عينيه ليتأمَّلَ شيئًا ما، ثم يبدأ في رسم بعض الملامح في اللوحة، ويعود بعدها إلى المنظار، ثم يعود بعدها إلى اللوحة، وهكذا. بجانبه الطبيعة، بجانبه الأشجار، بجانبه الطيور، بجانبه أشخاص آخرون، بشرٌ يأنس بهم، يتركهم كلهم وينظر في منظار ليرسم. استغربتُ الأمر، وربما لهذا السبب توقفتُ عنده، لكي أرى كيف ستكون اللوحة، كلما نقش بالفرشاة نقشة أحسستُ بأن عيني التي هي غير موجودة أصلا تبرز وأنني أقف في المكان دون جسد، كأن روحي تقف مشدوهة أمام اللوحة ولا تستطيع أن تغادرها.

غافلتُه ونظرتُ... إحساسي كان كأنني غافلته، بالرغم من أنني لم أغافله لأنه لا يراني أساسًا وبالتالي لم أغافله، هل أقول: دون أن يدري أو يحس بي نظرتُ من المنظاروكأن عيني المتخيَّلَة قفزتْ مني؟ كان يسلّط المنظارعليّ أنا في الصخرة، على ذلك الصهد، على الشجرة، ويبدو أنه يرسمنا. كيف يرسمنا؟ أو ما الذي سيضيفه؟ وكيف رآنا؟ هذا ما جعلني أتسمَّرُ في مكاني كي أرى كيف ستكون صورتي أنا والشجرة. لا أعرف كيف أستخدم لغة أخرى غير"أتسمّر"... هل الروح تتسمّر؟ أم الروح تعانق؟ أم تحتضن؟ أم تنطلق؟ أم... أي أن روحي تشبَّثتْ بالمكان وظلَّتْ مُطِلَّةً من فوق ذلك الرسام الذي ينظر في المنظارويراني هناك. وأنا عندما نظرتُ من المنظار رأيتُني هناك، ولكنني أحسستُ بأنني بعيييييييد عني، فربما تستغرقُ الطائرةُ يومًا كاملًا لتصل به إلى تلك الصحراء، وعندها لن تستطيع أن تهبط. هل ترميني من فوقها أم ماذا؟ هل تدفعني بجهاز ضغط هواء مثلا أو شيء من هذا

القبيل؟ لا أعرف. المهم أنني لم أجدْ شيئًا في اللوحة: لم أجد صخرة ولم أجد شجرة ولم أجد تفاحة ولم أجد رمالا حارقة... لكن برغم ذلك أحسستُ بأنه يرسم إحساسي أنا كصخرة وربما إحساسها هي كشجرة وسط تلك الملحمة الخاوية. رياح لونها ما بين الجمر الخابي أو الجمر والرماد: بنية، رمادية، حمراء، خليط بين ذلك. لا أستطيع أن أصف لون اللوحة. هواء في خيوط متموجة مثل خيوط السراب بالضبط، وهذه الخيوط يتصاعد منها صهد يعطيك إحساسًا ببخار الماء المغلي، وليس بخار الماء في الشتاء في الصباح مثلا على مجاري المياه في قريتي.

لا أعرف كيف أصف اللون ولا المنظر ولا اللوحة بالضبط، ولكنني أنا ذلك الذي تركتُه في الصخرة يعرفُ ذلك الإحساس جيّدًا، يرى أن اللوحة تعبّر عنه أو تستطيع أن تنقل ما يحسُّ به هناك من خواء، من صهد، من شوب، من وحدة، من عزلة، من عقاب، من جمر، من شمس لا تنقطع، من جفاف قاتل، من طرق وأشجار متلاشية ليظل مكانُها عبارةً عن هاوية، إحساس الصخرة بأنها على طرف الهاوية، وإحساس الشجرة كذلك، كأنَّ تلاشي الأشجارِ والأرض والطريق في حد ذاته مضاعَفَةٌ للعذاب أو التعذيب.

أحسستُ بأن اللوحة ذاتها لم تُنَفِّسِ العذابَ كما تخيَّلتُ، فلقد ظننتُ أن مشاهدتي الطويلة لها ستجعلني أَتَخَفَّفُ من كلِّ تلك الأحاسيسِ المؤلمةِ، ولكنَّ تأمُّلِي ضَاعَفَ وطأةَ إحساسي بالألم، وكأنَّ هذه اللوحةَ ذاتها تعذيبٌ مُضَاعَفٌ، ولا أدري لماذا أحسستُ بشيء آخر، كأن اللوحة ذاتها عبارة عن تحنيط بشكل أو بآخر لي، فأنا محنط هنا في هذه اللوحة، محنَّط هناك في تلك الصخرة، محنط في كل الأماكن، في تلك الروح التي تسير ولا تعرف ما تبحث عنه ولا تستطيع أن تتجسد حتى في جسد أحقر الحشرات، أو هكذا كنتُ أظن أنها أحقر الحشرات، لكنها

بالنسبة لي الآن أمنية، رغبة مستحيلة، وكأنني صرتُ عدمًا واعيًا، أي عدمٌ يعي بأنه عدمٌ، دون أن يستطيع أن يتَّخِذَ شكلًا سوى تلك الصخرة التي فُرِضَتْ عليه هنااااااااااك وراء ذلك التلسكوب أو المنظار أو أي شيء.

لا أعرفُ لماذا بدأتُ أحسُّ بأن ذلك التجسيد ذاته تحنيطٌ، بدأ ينتقل لي، أو في جزء مني... كيف تتحنط الروح؟ أو كيف يتحنط جزء من الروح؟ يُفترض أنها ليست جسدًا، ولكني أحس الآن بأن هناك جسدًا افتراضيًّا لي غير منظور، ولكن هناك جزءًا منه بدأ يصير منظورًا، أو بدأتُ أحس به، والغريب أنه لم يكن ذلك الذي قد يتشكل في ذهنك، فأنا لا أحس بالعُري، لا أحس بالخجل الآن، فقط أبحث عن نفسي، لا أحس بالخزي، ولا بالعار، ولا بالعُري، ولا بالخجل، ولا حتى بالذنب، فلو كنتُ ارتكبتُ كل ذنوب الدنيا أظن أن كل تلك السنوات وهذا العذاب تكفيرٌ كافٍ، وما دمتُ أحسُّ بأنَّه تكفيرٌ كافٍ فمِن المفتَرَضِ أن يتلاشى الذَّنْبُ من تلقاء نفسه، على الأقل هكذا أرى.

أحسستُ بأن قلبي يصير مادة، هو ينبض من البداية، لكنني كنتُ أرى، تخيَّلْ روحا ترى قلبًا لجسدها غير الموجود، وكان ينبض وكأنه يُدَنْدِنُ، وكان لونُه ليس أزرق، ولكن له نفس شفافية ذلك اللون الأزرق أو تلك الأجنحة للفراشات، ذلك النور الذي كان يتراقص... ما شاء الله! ها أنا أتذكر أن نورًا كان يتراقص فوقي وأنا نائم بظهري أمام بيتٍ لي ولأمٍ تصرخ في الصباح عندما تجدني غير موجود وأنا أحاول أن أقول لها إنني هنا على الدكة أو في الدكة، ولا تسمعني. أبٌ تدور عيناه يمينًا ويسارًا كأنه يبحث عن شيء وهو متيقن من داخله أنه من المستحيل أن يجده.

نعم، نعم، أنا هنااااااااك، وكأنني أستعمل منظار ذلك الرسام لأراني. إذًا أنا لستُ صخرة وكفى! أنا صخرة، أنا خشبة، وها أنا أراني أطاردُ فراشة وتطاردني، جميل! جميل جدا! أنا لوحة، أنا روح لها قلب شفاف أو لونه وامض، أنا صخرة، أنا دكة، خشب، أنا أطارد الفراشات وتطاردني. يبدو أن تاريخي مليء بأشياء كثيرة يبدو من ظاهرها أنها متناقضة، أو أن تاريخي طويل، سنواتي محمَّلة بي وبآخرين، من أنا الذي في "بي"؟ ومن هم الآخرون؟ هل أنا الذي في "بي" أنا الذي أتكلم الآن وأرى أني روح وأن قلبي شفاف وامض ولا يوجد في جسمي سوى ذلك القلب؟ أم أنا الذي في اللوحة؟ أم أنا الذي في الصخرة؟

وماذا عن هؤلاء الآخرين؟ نعم، ربما الآخرون الذين في تاريخي هم أنا أيضًا، فأحسُّ أنني هنا أنا وهنا أنا وهنا أنا وهنا أنا، وليس كل هؤلاء الـ... ما جمع كلمة "أنا"؟ هل "أنوات"؟ هل الأنوون؟ أظن الأنوات أسهل، جمع مؤنث سالم، أو ناقص، مع تحويل الألف إلى واو، إذن الأنا مؤنث، وأنا يُفترَض أنني مذكر، وكل هذه الأنوات لا تدل على رفعة شأن ولا على اعتزاز مسرف بالذات، وإنما على التشتت، أنا أحاول أن أتذكَّرني، أن أجدني، نعم، ها أنا أبحث عني، عرفتُ الآن لماذا أو عمَّا أبحث، أحاول أن أتذكرني، أن أجدني، أن ألملم شتاتي، فأجدني هنا وهناك وهناك وهناك وهناك وهناك وهنااااااااااااااااك دون أن أجتمع في "أنا" واحدة، دون حتى أن يجتمع جسدي وروحي في مكان واحد، دون حتى أن أجد جسدي كاملا، فأنا هناك صخرة وأنا هنا قلبٌ، وأنا في هذه اللوحة هواء محروق، وأنا هناك خشبة، وأنا هناك فراشة تقتل نفسها، فراشة تقتل نفسها؟ وكيف تقتل نفسها؟ كنت أحس بأنني فراشة، كنت أطير وراء نفسي، وربما كانت هي تحس بأنها إنسان وتطير

ورائي أنا الفراشة، فَتَصَادَمْنَا وتَلَاشَيْنَا، أو هي التي تلاشتْ ربما، وبعدها قالت لي بأنني سأتوه عن نفسي، وفجأة وجدتُ نفسي قطعة خشب أتوحّدُ مع الدكة.

أبحث عن نفسي، ويبدو أن كل هذه الأنوات تتصارع مع بعضها الآن، فها أنا أتذكر نتفة من هنا ونتفة من هناك، جزءا من هنا وجزءا من هناك، كأنني سأصير واحدًا عمَّا قريب، ولا أعرف ما المدى الزمني للقريب ولا البعيد، فعندما نظرتُ من المنظاروجدت أنني بعيد عن تلك الصخرة التي تبتعد عني في الزمان وفي المكان، وفي الوقت ذاته أحسستُ بأنني تلك الصخرة وأنا أقف لأشاهد اللوحة وأجد أنها تعبر عني، وفي... نعم، اللوحة، ها هو يضع توقيعه أسفلها، يكتب:

- الراوي

هل "الراوي" اسم شخص؟ أعرف راوية؟ والراوي أيضا اسم بعض العائلات على ما أظن. فمن المفترض أن يذكر اسمه: فلان الراوي. وأنا الآن لا أعرف إن كان الراوي صفة أم دَوْرًا أم لَقَبًا أم ماذا؟ ما علاقة اللوحة... أنا بوجه عام أقرأ القصص والروايات كثيرًا، هذا إن كان من الممكن أن نطلق اسم القراءة على ما يتشكل في ذهني وكأنني أرى صفحاتها بعيني، وكأنني أنا ذاكرة كلِّ الروايات والقصص... وكنتُ قبل أن أتحول إلى خشب أقرأ قصصًا ورواياتٍ كثيرةً، لكنني بعد أن تحولتُ إلى خشب، صرتُ أجد نفسي قد قرأتُ حتى من دون أن أقرأ، قرأت روايات أكثر، وكأن كل قصة أو رواية يكتبها أي أحد أقرأها تلقائيًّا.

لو اعتبرنا أن هذه اللوحة رواية، ما الذي حدث أو تحوَّل من مشهد الصخرة وبجانبها الشجرة هناك؟ كيف تحوَّلَ هذا المشهدُ وطبيعتُه بصريَّةٌ – صخرة ربما يتصاعد منها صهد أو سراب أو بخار وكأن بها ماء يجف أو يتطاير، وشجرة ربما كانت بهذا الشكل أو ربما كانت جافة تماما – كيف تحوَّل هذا المنظر إلى منظر هواء

محروق؟ ولماذا أسميه أنا "هواء محروق"؟ هل لإحساسي – وأنا في حالتي الصخرية – بأن أنفاسي محروقة، أنني لا أستطيع أن أخرج من الصخرة؟ أنا الذي هناك في الصخرة، لكن أنا الذي هنا خارج الصخرة، بل بالعكس لا أستطيع أن أدخل في صخرة ولا أستطيع أن أدخل في أي جسد كان، وعليّ أن أظلّ تائهًا هكذا، إلا من ذلك القلب الذي بدأ يتشكل لي. كيف حكى ذلك الراوي ذلك المنظرَ الذي رآه من المنظار في هذه اللوحة التي يبدو أنها لا توجد علاقة مباشرة بينها وبين المنظر؟ هل رآنا فعلًا هواءً محروقًا، رآنا أنفاسًا فاتَ أوانُها أو طاردَها شيءٌ ما فقطعَها، مثل تلك الطريق المقطوعة التي تحوَّلَتْ إلى هاويةٍ، وبالتالي حاول أن ينفذ إلى روح المشهد الذي أبصرَه ليعبِّر عنه بأسلوب مغاير تماما دون أن توجد تفاصيل مباشرة بين ما رآه وما حكاه، أو ما رآه وما رسمه؟

لماذا يتزايد إحساسي بالثبات أو التثبيت؟ فها هي اللوحة تندهني وعليَّ أن أقف أمامها على الدوام، وفي نفس الوقت أرى قلبي وأخشى أن يعتبره أحدٌ فراشة فيقضي على إمكانية التجسد تمامًا. قلبٌ وحيدٌ منظورٌ ربما رآه البعض قلبًا مسحورًا، وربما رآه البعض هدية من السماء كطعام لهم، وربما وجد فيه أصحاب العقول كابوسًا يؤرقهم، وربما وجد أصحابُ القلوب في شفافيته ووميضه أرقًا آخر لهم، وربما وجد فيه أصحابُ الحروف الجافة روايةً وفِتْنَةً لا بدَّ مِن وأدِها. كل الاحتمالات في هذا السياق احتمالات سلبية، ليست جيدة، كلها لا تصب في مصلحة قلبي الوليد، ولذلك عليّ أن أختفي الآن، ولا أعرف لماذا أفكر بهذا الهوس في سرقة ذلك المنظار؟ أحس بأنني سأحتاجه قريبا، وأنا أقف فوق مكان ما، ربما كان بيتًا جديدًا، أو سطح بيتٍ ما لأنظر من خلاله ولا أعرف ماذا سأرى، لكن مجرد أنني رأيتُ من خلاله نفسي هناك يعطيني هذا إحساسًا بأنني سأجد نفسي فيه،

وربما أبصر جسمي وهو يتشكَّلُ كاملًا وكأن القلب سيتفرّع ليطرح جسمًا. لا أعرف، أو هناك صراع: هل أسرقه أم لا أسرقه؟ هو، أو ذلك المنظار أفاد ذلك الراوي بهذه اللوحة، وأنا الذي في هذه اللوحة وأنا الذي هناك والتقطني المنظارُ، فأحسُّ بأن هذا المنظار خاص بي، هو مِلكي، ولا أدري لماذا؟ أحسستُ بالرغبة في أن أنظر في عين الرسام، أقف خلف اللوحة التي أمامه وأنظر في عينيه مباشرة...

هههههههههههههههههههههههه في عينٍ أرى قلبي، وفي العين الأخرى أراني الآن وأنا هنا أمامه وأنا الذي في تلك الصخرة مجتمعين نشربُ شايًا مُرًّا بالرغم من أنني لا أحب الشاي المر، أحبه "سكر زيادة". نشرب شايا مُرًّا وبجانبنا مجموعة من الأشخاص... نعم، نعم، هؤلاء أعرفهم، نعم، هو الشاي، غريب هذا الشاي، كان مُرًّا منذ ثوانٍ، ها هو حلو، وها نحن ندخن الشيشة في مكان ما، ويضحك هؤلاء الأشخاص الذين يقولون على أنفسهم إنهم قراء ويقولون إنهم سيدبرون مَقْلَبًا لجمال الجزيري ويذهبون إلى سطح شقته الذي لم يكتمل بعد في مصر ويتركونه هو في غربته خارج البلاد.

الراوي

هل يوجد اختلاف بين المنظار والمرآة؟ بين المنظار ووجه الماء؟ بين وجه الماء والمرآة؟ نعم، كنتُ فوق السطح، لكنني كنتُ شاردًا، أنظر في مرآة. أليس التأمُّلُ أيضًا انعكاسًا للروحِ، صورةً لها، تجليًّا للمواقيت وهي تمتزج ببعضها في صورة خالصة، لا يستطيع زمن أن يجعلها باهتةً ولا تستطيع عينٌ أن تشوِّهَها؟ كنتُ أغسل السطح، نعم، انصرف العمَّالُ، ووجدتُ بقايا كثيرة لأعمال التشطيب، أحسستُ أنني لا بدَّ أن أقوم بغسيل السطح بعد تنظيفه وإزالة هذه البقايا، حتى إذا جاء ذلك الصدى وأولئك القراءُ وذلك الذي لا أعرف له اسمًا ولا أذكره على وجه الدقة، لكنه شخصية تغمس نفسها دائما وسط اللحظات التي تمتزج ببعضها – حتى إذا جاء كل هؤلاء يمكننا أن نجلس على السطح بسهولة، فلا يوجد أثاث بعد في الشقة، نعم، هناك مصطبة فوق السطح تسعُ ثلاثين شخصًا مثلًا، لكنها كانت هي الأخرى في حاجة إلى غسيل.

أعجبني منظر الماء الذي سكبتُه بعد إزالة المخلفات، وكان التعب قد تسلل إليّ، فجلستُ لأستريح، نظرتُ خارج سور السطح من جلستي: كانت نظرة بانورامية تلمُّ بأعالي العمارات والفيلل، بالأهرامات التي توجد على البعد، فتحولتُ من هذه النظرة البانورامية إلى منظر الماء الذي كان خلَّابًا ولا أعرف كيف. كان مثل ذلك الماء في قصة وضعني بها جمال الجزيري[١]. كنتُ بجانب الترعة أركب حصانًا على ما

[١] "دربٌ زاخرٌ" قصة لجمال الجزيري نشرتْ إلكترونيا في مجموعته "عوالم أخرى" عام ٢٠١٥.

أذكر، وكان الماء في الترعة قليلًا جدًّا، وكانت الأرض كلها بجانب الترعة كأن بها فيضانًا ضَحْلًا. ماء يحرِّكُه الهواءُ قبل الغروب قليلا، تترقرق أشعة الشمس على سطح الماء، ويعانق فيه ذلك الرجل وتلك المرأة أحلامًا في رحلة يبدو أنها أبدية.

رأيتُ على السطح ذلك المنظرَ كأنني أعيش القصة من جديد. لم تكن التُّرْعَةُ تهمُّني، ولم أرَها على السطح، فقط الماء الذي يحرِّكه الهواء لأن العمارة من أعلى العمارات، فهي مبنية على ناصية الشارع والهواء فيها منطلقٌ أو منسابٌ على الدوام. كان يحرك الماء وكانت أشعة الشمس تعانق الهواء ويتراقصان أو يتدحرجان سويًّا في الماء. بدأتْ صورةٌ تتشكَّلُ أمامي، فدائمًا أحسُّ بأنَّ التأمُّلَ خَلْقٌ، التأمل حياةٌ، التأمل انبعاثٌ لصورٍ من الماضي والحاضر والمستقبَلِ، كأن الحياة تتجمع في مشهد واحد، في برزخ واحد، وكأن نتيجة التأمل أقرب لفُلك سيدنا نوح، ماء حولك من كل اتجاه يهدد بالغرق، يعد بالبداية الجديدة، وفي الفلك جميع بذور الحياة، كل الكائنات التي كانت، كل الكائنات التي تكون، كل الكائنات التي ستكون، موجودة في فلك واحد.

ولكنني وجدتُ المنظر يتحول تدريجيًّا إلى نقيض الماء، أو ما ظننتُ ساعتها أنه نقيض الماء، لكنني اكتشفت بعد ذلك أنه هو الماء ذاته، رجلٌ رأيتُه على سطح الماء، وكان سطح الماء خلفية ساكنة، وربما كانت بقايا التراب الناتج عن المخلفات قد جعلت خلفية المنظر تبدو أشبه ببيوت طينية. كانت صورة... هل هي أقرب لـ... لا أعرف كيف أصف المشهد، لكن قديمًا قبل ظهور الكاميرات الحديثة، عندما كانوا يحمّضون الأفلامَ، عندما تغوص تلك الورقة التي ستكون عليها الصورة بعد تحميضها في ذلك السائل، لا تغوص، بل تنزل تحت السطح قليلا، فيمتزج السائل بالصورة: لا هي تظهر، ولا هي تختفي، ولا أعرف كيف أرى المشهد منيرًا تمامًا

بالرغم من أنني أعرف أن تحميض الصّور يتمُّ في الظلام. كانت صورة رجل ربما تظهر وتختفي:

جلباب أزرق، ولا أعرف ما دلالة اللون الأزرق، لكن لونه تجلَّى هكذا، بالرغم من أنني عرفتُ بعد ذلك أن اللون الأزرق مرتبط بالفراشات، وتلك الكائنات التي تطير لتصل إلى أعلى الجبل هناك، هكذا الرواة يعرفون بعضهم بعضا وينقلون خبرتهم لبعضهم البعض، واستطاع أحد الرواة من قبل ذلك هنا، ذلك الذي كان ينام على ظهره ويرى الفراشات عبارة عن نور أزرق، ربما لهذا السبب تجلَّى لي ذلك الرجل باللون الأزرق. لا أعرف، نعم أنا راوٍ، والرواة يقرؤون أيضا، لا يكتفون بالسرد، فيعيشون مع الكاتب في كل قراءاته وفي كل كتاباته. وأحسستُ بأن لقطات من هنا وهناك، من قصص لجمال الجزيري، بعض الروايات القصيرة له أيضا، بعض الروايات التي قرأها، روايات ربما تخيَّلها، هل قرأها فعلا أم أنه هكذا يظن أنه قرأها وهي متجسدة في رأسه بالفعل؟ هل الرؤية تقتصر فقط على رؤية الأشياء التي تقع في مجال النظر كما يقولون؟ أم أنها تشمل الأشياء التي لا تقع في مجال النظر، الأشياء التي يتم مزجها ببعضها لتشكل صورة جديدة، الأشياء التي يتم استحضارها من الذهن من خلال تركيب انطباعات، تركيب ذكريات، تركيب أحاسيس، تركيب نبوءات على بعضها البعض بحيث تتجسد في صور معينة، صور تتجسد في الخيال أيضا ويظن صاحبها أنها حقيقة، أو هكذا يذكرها فيما بعد على أنه شاهدها من قبل أو رآها أو عاش معها لحظات مثلًا أو شيء من هذا القبيل؟

أحسستُ بأن صورة ذلك الشخص الذي لا أعرفه أو لا أعرف اسمه على الأقل بدأتْ تتشكل من خلال أجزاء من لقطات هنا وهناك، أعمال مكتوبة، أعمال مرئية، أعمال متخيَّلة، أعمال متصوَّرة، أعمال ممزوجة من عصير الذاكرة إذا

جازلنا أن نطلق عليه هذا الاسم. هل كانت بلا ملامح في البداية؟ كنتُ أراه يعطيني ظهره، بالرغم من أن الماء هنا مرآة ويُفترَضُ أنني أجلس أمامه مباشرة، ويُفترَض أن أراه رأي العين، وجها لوجه، لكنني أراه مزيجَ إنسان أو عصير إنسان، ليس بهيًّا مثل خلاصة رائحة النساء في رواية العطر لباتريك زوسكيند، هو خلاصة أشخاص، أو ربما شخص غائب عن نفسه، وبالتالي لم أستطع أن أراه جيّدًا.

لماذا كان يتأمل الموت البادي في البيوت الطينية، في الحشرات المميتة ربما؟ وما علاقة ذلك بالماء الذي تتعانق عليه الشمس والهواء ويرقصان معه سويًّا، الذي كان في تلك القصة والذي رأيتُه بالفعل أمامي على السطح؟ منظر يشي بحياة المستقبل والوعود، ومنظر ربما يستدير نحو الماضي، أحسستُ بأن وجهه يواجه أو يطل على أو يتأمل البيوت الطينية القديمة التي زهقتْ منها الأرواحُ أو هجرتْها أو أصبحتْ تلك الأرواح هواء محروقا كأنها أشباحٌ مُطَارَدَةٌ، الأرواح أشباح تتم مطاردتها، من الذي يطاردها؟ هل الصهد؟ هل عدم وقوعها في مجال النظر، أيا كان نوع النظر؟

كان هو يجلس كأنه يتحسَّر، كأنه يتجمَّد أمام لحظات هاربة، وأحسستُ بأن تأملَّه ذاته وحتى حسرته ذاتها نوع من الحياة، فلا يحس بالفقد إلا من كان قلبه عامرًا بالحياة، من كان يتطلع لحاضر أفضل، لِغَدٍ مشرق، لأنفاس تزرع المكانَ محبة وألفة ووَنَسًا، دون أن تتساقط الأرواح من على الطريق، دون أن تبتهج الأجساد بأن روح المكان فارقتها. نظرة بالرغم من أنني لم أرها كنتُ أتيقن من أنها دامعة، كأنها تريد أن تروي بدمعها تلك الشجرة التي كانت أيضا تظهر وتختفي في جانب من المشهد، وبالرغم من أنني كنتُ أراها وخلفها مسطَّح الماء الرقيق على السطح، كانت جافة تماما، كأنه كان يريد أن يروي بدمعه كل هذه الشجرة حتى

يستحلب فيها كل هذه الحياة من جديد، هل يستحلب فيها الحياة؟ أم يَدْفُقُ فيها الحياة؟ أم يمتزج هو بها، فإذا التقى العجزان يمكنهما أن يصيرا نقطةَ قوة تقضي على فكرة العجز ذاتها؟

أحسستُ بدمعي وأحسستُ في ازدياد الدمع الذي لمْ أرَه انسيابًا لحياة كاملة ربما تاهت عنه أو تاه عنها أو حُرِمَ منها، وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أتتبع دفقة حياة في عين أو قلب أو حتى شهقة. فتتبعتُه. هل كنتُ أرى نفسي؟ هل كنتُ أرى شخصيات تكاد تفلتُ من ذاكرتي؟ هل كنتُ أرى مزيجًا يجمع بين ما ضاع وما سيأتي؟ الإحساس بلحظة الضياع عثورٌ أو تحقُّقٌ أو تثبُّتٌ في المكان، وربما تثبُّتٌ في الزمان أيضا. هل المكان والزمان منفصلان؟ أم أنهما ممتزجان أيضا، فالزمان لحظةٌ في المكان. عندما أتذكر مشهدا من حياتي الماضية أو السابقة أو الموازية أو... أي مشهد كان، في أي حالة كنتُ أنا عليها، أتذكره في مكان معين، مع بشر لهم أجساد حالَّةٌ في المكان، هل الجسد مكان أيضا؟ هل هو زمان؟ أتذكر نسمة الهواء، حركة العيون، حركة الأرواح في المكان، عندما أتذكر مكانًا ما أتذكَّرُه بما حدثَ فيه، بالذات التي تركتُها فيه، بالكلام الذي قصصتُه عليه، بحركته في الزمان حتى لو كنت أنا ساعتها ساكنًا في المكان أو جالسًا، راقدًا لا أتحرك، كلامي يتحرك في الزمان وينبعث في المكان ليصير جزءا من روحه.

عندما أستحضر المكان أستحضره بكلماته، بأنفاسه، بلحظاته، وها أنا أرى في الماء أمامي على السطح أماكنَ وأزمنةً وفُلْكًا وانطلاقًا نحو الغد والأمس والآن، مزاوجةً بين ما فوق السطح وبين الامتدادات خلف رأسي، فوق العمارات والفِيلل، فوق الأماكن في هذا التوقيت الذي يسبق الغروب أيضًا. ولا أظن أن الغروب هنا نهاية أو إسدال ستار، فالغروب ينقل لي امتداد الصحراء، ينقل لي الأهرامات

بخلودها، ينقل لي الامتداد مكانًا وزمانًا ورؤى، ينقل لي امتزاجَ اللحظات وما سيأتي، نعم، ما سيأتي، فهو أيضا أراه ولا أراه، مثل تلك الدمعة في عين ذلك الرجل، ومثل هذا الفلك، فلك نوح الذي يتحرك أمامي الآن، ومثل تلك الذكريات التي تدور في عقل ذلك الرجل وأكاد أراها بالرغم من أنني لا أرى حتى وجهه ولا أعرف معالمه.

هل أنا أسرد المشهد من زاوية أخرى أم أتأمله؟ ربما كان السرد بطريقة أخرى في حد ذاته نوعًا من التأمل، وربما كان التأمل سردًا للأحداث على مستوى اللاوعي أو الوعي، لا، مستوى اللاوعي، أو الوعي، أو الامتزاج ما بين الوعي واللاوعي، لا، النظر إلى ما حدث بزاوية جديدة تنفذ إلى روح الحدث، روح الشخصية، روح المنظر، روح المكان، روح الزمان، روح العلاقات الكائنة بين كل مفردات الوجود عندما تلتقي في هذا المشهد الخاص، في هذا الامتزاج أو البرزخ الذي يُبرز ما فيها من حياة، وأنا عاشق الحياة وأحرص على ألا تفوتني لحظة امتزاج كهذه، لحظة تُجَسِّدُ الزمان أو تُزَمِّنُ المكانَ أو تستطيع أن تلامسَ روحًا تجمع كل هذا في مكان واحد في لحظة واحدة في مشهد كمشهد الماء أمامي الآن.

ربما تتوقع مني كراوٍ أن أذكر لك أحداثًا كثيرة ومغامرات واستعادات في جلسات مصاطب، لكنني بالرغم من أنني أجلس على مصطبة بالفعل، أرى أن دور المصطبة في السرد مُحْكَم جدًّا، ربما كانت كلمة مُحْكَم غير دقيقة: لو كان حديث المصاطب عبارة عن ثرثرة فارغة، أو حدث من هنا، حدث من هناك، بدون رابط، ربما للتسلية فقط، ربما للاستعراض، لأي غرض كان، فإن حديث المصطبة في الرواية حديث صامتٌ، حديث ينفذ إلى روح الحدث وروح الفعل وروح اللغات التي تمتزج ليقول بصمته – والصمت هنا تأمل بشكل أو بآخر– ما لا تستطيع مئاتٌ من روايات المصاطب أن تقوله. هذه مصطبة لابتعاث الحياة، مصطبة لمعانقة الهواء

الذي يعانق أشعة الشمس اللذين يُرَاقِصَان الماء على سطحٍ أمامي الآن، أو في تلك المسطحات المائية في تلك القصة.

والغريب أننا في رمضان أيضا، كما كانت أحداث تلك القصة في رمضان، ما علاقة رمضان بالماء الذي يعانق أشعة الشمس والذي يعانق الأقدام التي تخوض فيه، الذي يعانق الهواء على السطح ويفتح أبواب التأمل والإنصات والصمت على مصاريعها؟ هل الصوم صمتٌ؟ هل الصوم تأملٌ؟ هل الصوم معانقة للحياة؟ هل الصوم إحساس بالكون، بالآخرين، بالحياة المشترَكَة؟ ربما كان كذلك، أو هكذا يتجلى أمامي الآن، رمضان صيام، انطلاق، صمتٌ، تأمل، تدبُّرٌ، حياة، فُلكُ نوح، والتقاء رواة، التقاء شخصيات، التقاء أزمنة، التقاء أمكنة، التقاء كل هذا في قطرات الماء المنسابة أمامي الآن، ربما لهذا السبب أبصرتُ الحياةَ في دمعة ذلك الذي لم أرَ وجهه ولم أرَ دمعته، فبدأتُ في محاولة سرد ما لا أراه، السرد تخيُّل، فهناك مثير خارجي قد يكون عبارة عن كلمة واحدة، قد يكون رائحة، قد يكون نَفَسًا، قد يكون نسمة هواء، قد يكون قطرة ماء، قد يكون نوّارة أو زهرة متفتحة، قد يكون ثورة فاشلة، قد يكون دماء نازفة، قد يكون نهرا جافًّا، قد يكون لوزة قطن، قد يكون تشققات في أرض تشتاقُ للماءِ وتحنُّ إليه، قد يكون نِيلًا يوشكُ على الجفاف، قد يكون ثورة لا يرى فيها الكلُّ إلا الجسد، فيحاول كل منهم أن يغتصبَ جسدها كما يحلو له إلى أن يضيع كل شيء... لكنه يفتحُ أمامك مناظرَ لا حصر لها كأن تحكي نظرةُ عينٍ مثلا روايةً كاملة تعجز أبجديات اللغة عن سردها، تمر الدقائق ولا تمر، تتجسد في المكان لوحةً ولا أستطيعُ أن أمنع نفسي من قراءتها كراوٍ يعرف كيف يستنطق مواضع الصمت، يعرف كيف يعبِّر عن الخرس، كيف

يعثر في الألسنة الخرساء، في النظرات المبهمة، على آلاف الخيوط التي تربطه بشتى الحكايات والروايات والومضات والقصص...

أراه يتسلق نخلة بعيون قد يراها البعض حجرية أو جامدة أو غائرة أو بلا كلام، لكنني أرى فيها عزيمة، سيمفونيةَ زمن، نقراتِ مكان، وخزاتِ وجعٍ، أرى فيها حياة كاملة قد لا تظهر مباشرة على السطح، لكنني أبصرها كاملة، مضطربةً، ممتزجةً، هنااااااك، تتسلق كَيَدِ خبيرٍ بالرغم من أن... هل نطلق عليها سلالم النخلة أم مواضع التسلق أم جذور الجريد التي تكون بارزة حتى يضع عليها طالعُ النخلةِ قدمَه وتمسك يدُه بها ويستطيع أن ينتقل درجات لأعلى بالرغم من أن هذه الدرجات كانت شبه متآكلة؟ ويبدو أن هناك لغة مشتركة بينه وبين النخلة، كأنها تألف طلوعه، أو أن بَلَحَها يناديه...

يُفترض أن ما أراه ليس معقولًا، ولكنني أراه، وما دمتُ أراه فهو معقول، أو على الأقل واقع حقيقي أمامي الآن، ليس بلحًا فقط هو ما يتساقط، تتساقط ثمار من كل الأنواع، ها هي تفاحة، ها هي كمثرى، ها هي رمانة، ها هو بلح، ها هو برقوق، ها هو ليمون، ها هو زيتون، ها هو تين، ها هو عنب، يا الله! الثمار كلها تندمج في نخلتي، وكأن هذه النخلة ذاتها هي شجرة في الفلك، أمُّ الأشجارِ، ستتفرع عنها كل الأشجار.

ينزل مبتهجًا ببطء، وكأن نظرةَ عينيه تكايد كل اللغات. يقضم قضمة من هذه الثمرة، قضمة من تلك، ويقوم بتجميعها. يحفر حُفَرًا هنا وهناك على مسافات متباعدة نوعا، يدفن هذه الثمار في الأرض، في كل الحفر، وكل حفرة بها ثمرتان، بعضها متشابه، بعضها مختلف في نفس الحفرة، يردم الحفر ويسكب الماء فوقها، والغريب أنني أرى الماء الذي سكبته فوق السطح بدأ يتناقص، كأنه روى تلك الثمار

من الماء الذي تتشكل عليه الحياة أمامي على السطح وأرى عليه الفلك. وها هو ينظر إليّ ويقول:

- نَمِّ فأسَكَ.

هل أستطيعُ أنْ أُوصِلَ هذا الماءَ إلى العالَمِ الذي يدخلُ فيه؟ أعرف أنني يمكنني أن أصل إليه من خلال بصيرتي، من خلال تأملي، من خلال إغماض عينيّ والاندماج في روح الحكايات... أبتسمُ، وأقول له متخابثا:

- هذه الفأس حديد وخشب، خشب من تلك الشجرة الجافة التي رأيتُك بجانبها في بداية المشهد، وحديدٌ نزل من السماء.

وأجدني أسرح بخيالي، كأن الطوفان علا فوق الأرض تمامًا وفوق الجبال، وصعد وكأنه لامس... ماذا نسميها؟ سماء الحديد؟ أم حديد السماء؟ في اللغة العربية كلمة السمك، ولا أذكر حتى معناها، "إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بيتًا دعائمُه أعزُّ وأطولُ". هل السمك هو ذلك الطرف عندما تلتقي السماء بالأرض؟ لا عاصم اليوم من أمر الله، من المؤكد أن الجبال كلها غرقت، ولن ينجو من الغرق كل من فوقها...

حديد وخشب، وأرض تحن للولادة على أيدي عشاقها، ومغرب رمضان يؤذن، كوب العصير والسندويتشات التي أحضرتُها قبل أن أبدأ في تنظيف السطح، جميل! وعلى رزقك أفطرتُ.

تلاشت أشعة الشمس بالتأكيد، وبدأ الفحم الذي أُشْعِلُه الآن في إضافة لون جديد للمشهد، ربما ليعوض غياب أشعة الشمس، اتحاد الدخان والهواء والماء بدا أكثر رومانسية على ضوء المصابيح.

الهواء المحروق

هل كانتْ كلُّ هذه السنوات سنواتِ تيهٍ فعلا؟ أليس الصمتُ الإجباري سوى تيه وضياع وجمود وتغييب قسري؟ كانت الصخرة خرساء، وكنتُ أخرس، صحيح أنني كنت أخرسَ من الصخرة أو كنتُ أنشطرُ، أظلُّ واعيًا بحدودي الحجرية وسجني الصغير في الصخرة، وفي الوقت ذاته تنطلق نسخة أخرى مني لتجوب البلدان بحثًا عن كلمات تعانق الحياة. هل كان الهواء المحروق صمتًا أم إخراسًا؟ هل كان سجنًا أم ثورةً قادمةً؟

توقَّفتُ كثيرا كأنني أخرجت من داخلي عدة شخصيات أخرى، شخصية ترسم، شخصية تروي، تحكي، شخصية تنظر من المنظار، تنظر من المنظار أم تنظر في المنظار أم تنظر بالمنظار؟ ربما كان تنوع حروف الجر في حد ذاته دليلًا على تنوُّعِ طبقاتِ الصوتِ، كأنني كنتُ أريد أن آنس بي، بالرغم من أنني كنتُ أراني هواءً محروقًا، كأنني كنتُ في حاجة لأن أتأمل نفسي، لأن أنظر في مرايا كثيرة حتى لو كانت هذه المرايا عبارة عن منظار أو وجه ماء، لأرى نفسي حتى أتحقق من وجودي، أتحقق من أن تلك الصخرة التي أنا محبوسٌ فيها ما هي إلا وهمٌ، والصمت ذاته قد يتحول إلى عشرات الأصوات والتنويعات وانعكاسات المرايا، ووجدتُني – هل استعمل فعل أتماثل أم أتناسخ أم أتعدد أم تثرى ملامحي وتبدأ في التشكل؟

كنت في البداية كأنني لستُ موجودًا في الرواية، لكنني أعرف ذلك الجزيري واحتفائه بالأصوات، وقرأتُ – هل قرأتُ أم رأيتُ أم سمعتُ أم تحسستُ قصة الأصوات تلك في رأسه، فأنصتُّ لها، أو صمتُّ أمامها، أو أغمضتُ عيني كي أسمع كلَّ تلك الأصوات جيدا، وساعدتْني في أن أعدد أصواتي، أن أُبصرَ نفسي لتتجسَّدَ

أمامي، فيمتزج ذلك الهواء الذي كان محروقًا بأشعة الشمس وبراقصان الماء على سطح حياتي، وما السطح إلا انعكاس لما يمتزج ويتنوع ويتعدد ويتناغم ويتصارع داخلي، كأن السطح مرآة أو كأنه تصعيدٌ لإمكاناتِ الروح، إمكانات الوجع، إمكانات الصراخ، حتى أتجسّدَ أمام عينيّ بعيدًا عن الصحراء، وبعيدًا عن البيوت الطينية التي تحتلها الحشراتُ، وبعيدًا عن التوهان في عشرات النصوص، في عشرات فورات الغضب، دون أن يمتزج ذلك الغضب بالنور أو التأمل أو الوصول بالعين إلى المستقبل لترى الثورة على حقيقتها فتتدارك ما قد يسحب قدمَها إلى الهاوية، دون أن أتجسد في شخصية ثرية متنوعة يمكن للحياة أن تثق فيها وتسخِّر لها إمكاناتها، وها أنا ألتقي بنفسي على ناصية الأصوات، أو عند مفترقها أو برزخها أو التقائها، فالكل يصبُّ في نبض الحياة، وكل نبضة أغنيةٌ، وكل أغنية روحٌ لا تنفصل عن أرواح تملأ الأرض اشتياقًا وحنينًا ونماءً وروايةً ورواءً وسردًا وأصواتًا تعرف كيف تأتلفُ ومتى تتباعد وكيف يعكس بعضها البعض دون أن ينمحي أحدُها، دون أن تتباعد...

قلتُ له:

نمِّ فأسَكَ.

نعم، ها أنا أتذكر الآن، كان ذلك في عام ٢٠١٠، وكانت الثمرة تجهّزُ رؤوسنا وأيادينا لشيء ما، لم يكن معقولًا أن يستمرَّ تبخُّرُ المياهِ هكذا في ذلك المستطيل الذي كان طويلًا جًدا وحارقًا، لا مكان تستريح عليه، ولا الماء الذي منه كل شيء حي تبقّى، يتبخر ويحترق، الماء المحروق والهواء والمحروق، كنتُ أنا وكان هو في داخل ذلك المستطيل، هل كُنَّا جميعًا ماءً محروقًا وكنتُ أنا لوحدي هواءً محروقًا؟ كانت الأرض ربما تشبه الأرض المحروقة أيضًا، ولكنَّ ثمارًا هناك قد تكون ثمارَ تأمُّلٍ، قد

تكون ثمارَ غضبٍ، قد تكون ثمار ثورة، قد تكون دفقة حياة كمكافأة نمنحها لأنفسنا بعد تحمُّلنا كل ما في ذلك المستطيل والهواء المحروق والبخار المحروق.

قلتُ له:

نمِ فأسَكَ.

ربما كان فقط فارق السن بيننا، فأنا أكبر منه... لا أعرف إن كان قليلًا أم كثيرًا، فلأقلْ إنني أزيد عنه عشر سنوات أو عشرين سنة على الأكثر. هل كان ذلك المستطيل هو الصخرة التي أحتَبِسُ فيها هناك، وكنتُ أنا الذي في الأرض وأقول له "نمِ فأسك" صدى لي؟ فأنا هناك في المستطيل وأنا هناك في الصحراء، فالازدواج سيد الموقف فيما يبدو، وكان هو أيضا يكتبني في تلك الرواية القصيرة على أساس أنني جزء من الرحلة التي ستوصله إلى أمه، ستوصله إلى بلده، سيستطيع هاتفه بعدها أن يتعرف على كود بلده ويستطيع أن يأنس لصوت يكاد ينقطع، فيستعيده ويواصل الحياة.

عشرون عشرة ٢٠١٠، ما السر في ذلك الرقم، رقمان نصفُ رقمين، رقمان ضعفُ رقمين، وكأن الصفر لو تحرك قليلا سيبدأ في التصاعد إلى أن يحدث اللقاء بين العشرين والعشرين، عشرون وعشرون، ٢٠٢٠، ما ذلك الرقم الآخر إذن ٢٠١٨، ٢٠١٩ الذي رأيته في تلك الرواية القصيرة التي لا أستطيع أن أتذكر اسمها الآن. كنتُ هناك فوق الجبل وكان شخص ما – ربما امرأة قالت عن نفسها إنها قريبة لي، واستبشرتُ بها، أحسستُ من كلامها أنني سأتحرر من ذلك المستطيل، سأتحرر من تلك الصخرة، سأتحرر من البخار المحروق والهواء المحروق والأرض المحروقة، وكان الهواء في أسفل الجبل محروقًا، وكانت الأرض محروقةً، وكانت الشوارع منهوبة، وكانت صورة ذلك الباسم المعلقة على كل شيء تشي بالخراب

وتشي بالباسم الآخر في قصة[١]... لا، ليست قصة جمال الجزيري، إنها قصتي أنا، أنا الراوي، أنا الصدى، أنا ذلك الذي لا أستطيع أن أتذكر اسمه على وجه الدقة، هل أنا إبراهيم أم إسماعيل أم يحيى؟ لا يهم، فليكن اسمي أي اسم، أروي، أحاول أن أتذكر، ولا أعرف لماذا يحضرني الآن ذلك المشهد في قصة أيضا... جمال الجزيري هذا لص كبير، عندما وصف نفسه في تلك الرواية الأخرى الخاصة بالثرثرة بأنه لص لم يكن يكذب[٢]، فلنقل إنه لص صادق: يكتب قصصي أنا على أنها له، ولكنه لم يكتبها، هو يترك الراوي يسرد القصة، أنا الراوي، إذن هو تركني أنا أسرد القصصَ، الرواياتِ، لماذا إذن أنا أظن أن هذه الرواية لجمال الجزيري بالرغم من أنني أنا الذي أتكلم فيها وأنا الذي أسرد أحداثًا معظمُها لي؟ أمام مبنًى رسميٍّ أو عسكريٍّ، ونطة الحبل، ولكن أمسكُ أنا وتلك التفاحة بطرفي الحبل ونُوقِعُ كُلّ... مَن؟ هل هم أولئك الذين يخرجون من ذلك المبنى الرسمي أم الذين...؟ هناك دبابة، والنار يمكنها أن تصل إليها، وما ذنب الدبابة؟ ما ذنب النباتات؟ ما ذنب الدبابة؟ لكن النار أيضا تحرق، ألم ترَ تلك الشقة في أعلى العمارة أو البرج أو المبنى الكبير؟ تشبه ما فوق الجبل، على الأقل على مستوى توازي المكان، وكنتُ أنا تحت عمود، وكانت هي تحت عمود، وكأنَّ الصَّبَّةَ صُبَّتْ لتكتُمَ على أنفاسنا، وها أن أدرك لماذا أسمى جمال الجزيري تلك الروايةَ "طيور تكتم أنفاسها"! ولم يقم بتشكيل العنوان ليجمع ما بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول في عنوان يقول ولا يقول!

---

[١] قصة "التطهُّر بالرَّجم" و"قصة "على بالي" وقصص أخرى يظهر فيها أمثال هذا الباسم نُشرت إلكترونيا في مجموعة جمال الجزيري "ارجموا ذلك الباسم" عام ٢٠١٥.

[٢] رواية "ثرثرة فوق الفضاء الأزرق" لجمال الجزيري.

ولماذا استقرَّ مؤخَّرًا على تسميتِها بـ "طريق الخروج"؟ كلٌّ عليه ضريبةٌ لا بدَّ أن يدفعَها...

لم أتوقَّع أن يكون آخر دور في العمارَةِ أو البُرْجِ هكذا، خاصة وأنه هو الذي يتصل بالسماء مباشرة، يتصل بالسماء كما يتصل ذلك الجبل بالسماء، لا يذهبْ تفكيرك بعيدًا، السماء هي نبضنا، السماء هي ذلك الهواء المحروق وذلك البخار المحروق، وتلك الأرض المحروقة، الذين يذكّروننا بأننا نتطهر، بأن الهواء سيتحول من المحروق إلى... ماذا؟ نسيم؟ نسيم فوق جبل؟ نسيم فوق سحابة فوق جبل؟ نسيم فوق سحابة فوق فراشة فوق جبل؟ سحابة كتلك الفراشة ذات النور الأزرق، لا أدري، إذن نحن الآن أمام ثلاثة احتمالات: ٢٠١٨، ٢٠١٩، ٢٠٢٠، لا أدري، لو جمعنا المتوسط سيكون ٢٠١٩، لكنني أحس بأن ازدواج الرقم ٢٠٢٠ قد يكون له معنى، ١٩١٩ ثورة ١٩١٩، ١٨١٨ لا أذكر عنها شيئا، ١٩١٨ الرقم الذي يليه، الحرب العالمية الأولى، ١٩، لا يهم...

كانت الثمرة خطوة وذلك الغراب الذي قدّم لي: لي أم له؟ لك أم لي أم له؟ وهل نحن سوى واحد؟ لا تشغل بالك هكذا، نحن شخصية واحدة أولا وأخيرا، ذلك الغراب الذي قدم الثمرة الأخرى التي كانت لها عصارة كأنها الرحم، كأنها السائل الذي يلتف حول الجنين داخل الرحم، المستطيل، الرخام الحارق، الماء المتبخر، نمِ فأسَك، كانت محاولة عنيدة، أن تستحلب الحياة، أن تعتاد الأرضُ على لمسات الأيادي، أن تعتاد اللمساتُ على الأرض، على نبض الأرض، أن تبدأ في جمع صفوفك، في تناغم حركة الأرض وهي تتلمس الحياة، في أرض تبدو كما لو كانت محروقة، كل ذلك كان يدل على شيء، وكانت صرخات الجوع، صرخات الحوادث، صرخات التفجيرات، صرخاتُ الأنفاس المحروقة، تخيَّلْ أن النَّفَسَ الذي يُفترَضُ

أن تستنشقه لتحيا يصل إليك محروقًا! تخيَّلْ أن اللقمة التي تأكلها تصل إليك ملوَّثةً، مَسرطَنَةً، مسمومةً. تخيَّلْ أن السيارة التي تركبها لتنقلك من مكان لمكان تتمرد عليك، تخيَّلْ أنك طوال الوقت تسمع كلامًا لا تصدقه فتكاد تُصابُ بالجنون، لا يمكن أن يكون كل ذلك الكلام كاذب، ويصرخ ضميرُك ويقول:

- كاذب، كاذب، كاذب، كاذب...

فتنتفض وتصرخ صرخة تحس بأنها رصاصة في صدر ذلك الكذب. تخيَّلْ! ها أنا أحاول أن أتخيَّل. قد يكون التخيل هذا غير التخيل ذاك. وكنتُ أرى ذاك صدقًا. وانطلقتْ يدي ولم ننمِ فؤوسنا فقط، وإنما نمَّينا أيادينا أيضا، وتشابكت الأيدي. صرخات هادرة كالفيضان. نهر جامح لا يستطيع أحد أن يقف بوجهه. أقنعة تهرب من الطوفان. صدور منفوخة كأنها بالونات لا تقوى على اختبار. قمامة يجرفها الطوفان. توشك أن تحس بعودة الهواء إليك وأن الماء لم يعد يتبخر أو البخار لم يعد محروقًا، وأن الأرض تكاد تتنفس، الصبح يكاد يفلت صدرَه ويستنشق نَفَسًا يُعمِّرُ الأرضَ كلَّها، ولا أدري كيف بدأتُ أسمع طنينًا في أذني، كأن الفرحة سُكْرٌ، وكأن الأيادي المتشابكة قد تتخدَّرُ في لحظة واحدة. جُمعةٌ وراء جمعة، ولا أدري لماذا أحسستُ في صوتٍ يؤدي التحية لي أنه جزء من ذلك المستطيل، جزء من تلك الصخرة، وكأنه هو المستطيل، وكأنه هو الصخرة، وكأنه يريد أن يُرجعني إلى حالتي الحجرية وحالتي المحروقة من جديد. قلتُ لنفسي:

- يا ولد، لا تظن ظنًّا سَيِّئًا هكذا. لا بد أن تلك السنوات داخل الصخرة وتلك السنوات داخل المستطيل الحارق المُبَخِّر المحروق قد أفسدتْ عليك ظنَّكَ، وجعلتْكَ تظن أن ما كان هناك ممتد إلى الأبد، أن كل شخص لا بد أن يكون رمزًا لكل شيء سيء كان بالصخرة وفي المستطيل.

وعملتُ من نفسي دكتور نفساني وبدأت أحلّل نفسي، وقال ايه أنا فاهم ومتنوّر وبأعرف المنطق وبأتكلم كلام موزون!! لا تدعْ خطواتِكَ المنكسرة تؤثر على رؤيتك للطريق، لا تدعْ ماضيًا يحسب مستقبَلَك ويحبسه، لا تجعل خوفَك أو مخاوفك أو هواجسك أو كوابيسك تُغمض عينيْكَ أو تسوِّدهما فلا ترى في التحية إلا كل شر، هي سلام، هي تحية، هي قَسَمٌ بالشعب العظيم، وهل تستكثر على نفسك أن تكون شعبا عظيما يا سيدي؟ لا أستكثر، أنا فقط أتخوّف، أشكُّ في النظرة، أنا راوٍ، وعاشرتُ مئات الشخصيات، مئات الحالات، مئات المواقف، وأضع جميعَ الاحتمالات في حسباني، ما معنى المفارقة إذن؟ قد أقول كلامًا وأنا أعني عكسَه! الشعب العظيم، الشعب الحقير، التحية، ومن أدراني أن هناك إصبعًا يفكر أن ينطّ للأمام أو ينط للخلف من بين اليد التي تُحَيِّيني! مفارقة جسدية، مفارقة قولية، مفارقة لفظية، أي شيء، مفارقة بصرية، سخرية، قد أقول شيئًا وأنا مبتسمٌ وجادٌّ وربما جادٌّ تمامًا وبنبرةٍ محايدَةٍ تماما وأنا لا أعنيه، بل قد أعني عكسَه تمامًا، أو أنني أسخر من كل هذا الطوفان.

غلَّبتُ ما رأيتُه منطقًا ساعتها، وربما لم يكن منطقًا وكان مَلَلًا، فلا أستطيع أن أواصل وسط هذا البرد المتفشِّي، أو ربما صَدَّقْتُ الصورةَ التي كنتُ أنا من بين المروِّجين لها، أنا نظيف، كلنا صرنا نظيفين، يد واحدة، والتصفيقة لا تدري إن كانت لك أم عليك أم على عنقك!! لا شيء، صارتْ مرحلةً حجريَّةً حقيقيَّةً، لا مجازًا، ولا تأويلًا، ولا قياسًا، أن تُضرَبَ على رأسك إلى أن تفقد الوعي تماما، لا لشيء إلا لأنك تذكَّرتَ الفيضان، تذكّرتَ الطوفان، أو تذكرت به أو بدأت تتحدث عن نسمة هواء ليست محروقة، عن بخار يمكنه أن يعلو ويصير ماء، لا أن يتبخّرَ ويحرق أنفاسنا ويحرق رؤانا وبصائرنا معه! وعينك ما تشوف إلا النور! صوّرتُ

ذلك أو صوّره جمال الجزيري، أذكر أنني كنتُ نائمًا في ميدان، لا أذكرُ الاسمَ طبعًا، ولا العنوانَ، فالعنوان هو الذي وضعه جمال الجزيري، أذكر الموقف بصفتي روايًا، كنتُ راقدًا، مُرَقَّدًا، مُغْمًى عليَّ في ميدان، وتم تقديم المشهد كله في البداية من خلال حاسة السمع وليس من خلال حاسة البصر، هواء، صفير، كأنه يدخل من فوهة دبابة ويخرج من الجهة الأخرى، ريح تجرف كل شيء ولا تتبقى إلا آهات أجساد يبدو أنها ملقاة على الأرض لا تستطيع حراكا، ولا تعي شيئًا حولها سوى أغنية جنائزية تنوح في الأفق وفي المدى[1]. بعد ذلك أحسستُ بأن جسدي ذاته هو الذي تم حبسه تمامًا في صخرة كأنّ خرسانةً وُضِعَتْ فوقي وحُوصِرَ جسدي كي لا تخرج آهاتي أو كي لا يسمعني أحد، وانتقلتُ من الحالة الحجرية مجازًا أو قياسًا أو تأويلًا إلى حالة حجريَّةٍ صخريَّةٍ خرسانيَّةٍ في ذلك الميدان الذي توجد في آخره بوابة ودبابة وحراسة فوق الأسوار تكاد تفتك بالأرصفة بعد أن كانت ترسم ابتسامة حِمْلانٍ...

هل كان لا بدَّ أن ينظرُ إليَّ أحد كي أخرج من التيه؟ وهل نظرَ إليّ أحد أم أنا الذي نظرتُ إلى نفسي؟ أدرك الآن أنني الراوي في طقوس العبور وفي الوقت ذاته أنا عم إسماعيل في تلك الرواية، هل نظرتُ إلى نفسي كي أبصرني، كي أحدد موقعي، كي أخرج نفسي من التيه، كم منا مَن يتوه عن نفسه، من يحس أنه صحراء جرداء، أنه شجرة يابسة، أنه منقسم إلى عدة شخصيات مشتَّتَة لا تستطيع أن تمتزج في شخصية واحدة لتكمل بعضها بعضًا وتصير أكبر من مجموع أجزائها؟ ولذلك كان عليّ أن أخرج من حالتي الرملية، من حالتي الصخرية، من حالتي الطينية المفرَّغة

---

[1] رواية "مشروع تخرج" رواية قصيرة لجمال الجزيري نشرتْ في مجموعة رواياته القصيرة "شوط أول: ست روايات قصيرة"، دار الأدباء، ٢٠١٨.

من روحها، كي أنظر إليّ، وعندما تلتقي النظرتان تستطيع الحركةُ أن تدب فيَّ، أستطيع أنْ أمدَّ يدًا لنفسي، وساعتها سأدرك ما فاتني، سأدرك ما أضعتُه، سأدرك أنني الطين وأنني نهر وأنني الصحراء وأنني نسمة الهواء المحروقة وغير المحروقة، النسمة العليلة، النسمة الطازجة، النسمة التي تستطيع أن تجوب البلدان دون أن تفقد هويتها أو تضيع، أستطيع أن أكون عند سفح الجبل وفوقه في ذات الوقت، دون أن يفلت مني نوري، دون أن يفلت مني طيني، هل أنا كل هؤلاء الرواة؟ أدرك الآن لماذا بدأتُ هذه الرواية بالكلام بضمير المتكلم، فأنا الذي أنظر وأنا المنظور إليه، أنا الرائي والمرئي، أنا العدسة والذاكرة، أنا اللحظة الحاضرة وأنا اللحظات الغائبة، أنا اللحظة الحاضرة وأنا كل ما فات، كل ما هرب، كل ما انفلت، كل ما تاه، كل ما غاب عن نفسه ويحتاج إلى نظرة من نفسه كي يعود إليها، هي سيدة الحضور، وبإمكانك أو بإهمالك أو بانقيادك يمكنك أن تجعلها سيدة الغياب المؤقت أو الأبدي، كلٌّ حسب درجات الابتعاد، حسب درجات الاقتراب، حسب النظرة التي تستطيع أن تنظر بها إلى نفسك لتحددها في المكان، في الزمان، لتبصر شبكة علاقاتها المتشابكة والمتعددة والمتقاطعة والمتوازية، والمتوازيات قد تلتقي، كما تلتقي جوانب شخصيتك في لحظة حضور، قد ترى أن شخصياتك الهاربة طُرُقٌ متوازية، لكنك عندما تنظر إلى نفسك وتحدد موقعك تجد أن كل المتوازيات تلتقي فيك، تتقاطع فيك، وأنت الذي عندما غبتَ عن نفسك رأيتَها متوازية، بالضبط مثلما تنظر إلى ظواهر أو أحداث كثيرة في حياتك أو حياة المحيطين بك أو حتى المبتعدين عنك وترى أنها لا تتقاطع، في حين أنها كلها عناصر في تنظيم إجمالي، حكمة إلهية، عناية إلهية، تجمع كل ذلك في منظومة واحدة هي أنت، هي الآخرون، هي الأنفاس التي لا تراها، وتربطك بهم وبكل عناصر الكون،

كأنك جالس عند السفح، وكأنك فوق الجبل، وكأن نظرتك تتجلى على الجبل، تتجلى على السفح، تتجلى على الشجر، تتجلى على النهر، تتجلى فيك، تتجلى في إحساسك بالحياة الذي حضر عندما نظرتَ إلى نفسك وحددتَ نقاط الحضور، كما حددتَ جوانب الغياب، لتعيد ملئَها بالحضور ويكون الغياب استثناءً، أو هو غياب سفرٍ ستعود منه بعشرات الفوائد التي تُجَسِّدُ مقامات أخرى من الحضور، وتتنقل ما بين المقامات، تعلو وتهبط، وتهبط وتعلو، عندما يكون لكل من العلو والهبوط وزنُه النسبي في هذه المنظومة التي تجسد الصورة...

التفاحة

تركوني جميعًا كلُّ هؤلاء الأنذالِ، وأخذَ كلٌّ منهم يحكي قصَّتَه، وأنا كنتُ في مفتتح المنظار وفي منطلق الرواية، أنا تفاحة الصورة، أنا تفاحة الثورة يا أحبائي، يا مَن تركتموني وكأنني لستُ موجودة بالرغم من أن غصني كان أخضر ولم أكن أعد بالسقوط، لم يكن السقوط ليخطر على بالي، فكل ما كنتُ أفكر فيه أن تخضر الشجرة كلها، وليس مجرد ذلك الغصن الذي كنتُ أنا فيه. حتى ذلك الذي نَهَضْنَا سويًّا وكان محبوسًا أو راقدًا بالصخرة أسفلي في كل ذلك العراء تركني وأخذ يبحث عن ذاته وسط هوائه المحروق، وأخذ يجوب البلدان كأنه يستعرض نفسه أو يحضر لي عاشقين أو قوادين من جميع البلدان، سواء أكان يدري أم لا يدري.

كانت الرمال حولي قد بدأت في الإنبات، والطريق الذي كان مقطوعًا بدأ في الظهور كأنَّه يتشكَّلُ من لحمٍ ودمٍ، وذلك الذي كان بجانبي لو انتفض أو تمرد أو ثار على الصخرة بعزيمة لا تلين لانكسرتْ، وهو كان قد خرج منها بالفعل، وكان هيكله العظمي يتشكل أمامي. صحيح أننا كان بيننا شكٌّ متبادَلٌ أو توجُّسٌ في البداية، أو بالأحرى كنا لا نعرف كيف نتعامل مع بعضنا البعض لأن الموقف كان جديدًا علينا، ولم تكن في ذاكرتنا طريقة للتعامل معه أو الخروج منه أو تنميته أو توسيعه أو بلورته أو النهوض منه في خضرة وحياة وحركة تخرج من داخلنا لتنتشر في كل شيء حولنا. حتى ذلك المؤلف يكتفي فقط بمتابعة الملفات الصوتية التي يرسلونها له عبر الإيميل دون أن يعطيهم رأيه أو يوجههم أو يلفت انتباههم إلى أخطائهم أو يقول لهم:

- أين ذهبتم بالتفاحة؟ أين هي الآن؟ لماذا لم تظهر إلا في فصل أو فصلين؟ لماذا تركتموها هناك وهي لوحدها لا تستطيع أن تستخرج كل تلك الخضرة الكامنة في الرمال وعلى الطريق؟!

الخضرة التي في عزائمكم ولم تلتفتوا لها، وكأن كل منكم يريد أن يكون راويًا يُظهر بطولاته ومهاراته وفتوحاته التي يظن أنها ستفتح فصلًا جديدًا في كتاب تاريخ لن يكتبه أحد. أين أنتم الآن وأين أنا؟ أين نحن الآن؟ صحيح أنَّ روايةً تشكَّلتْ وأصواتًا تبلورتْ، لكن المنظار ضاع، ولم تعد تنكشف منه رؤيةٌ، هل الخطأ فينا؟ أم في المنظار؟ أم فيمن بدأ السرد؟ أم في الرواية ذاتها؟ صحيح أنني أحسستُ بالخضرة بعد طول جفاف، لكنَّ خضرةً لوحدها لا تصفِّق، الخضرةُ يدٌ، فكيف تنتشرُ بمفردها؟ لم تكن خضرة كاملة، كانت جذوةَ خضرةٍ، والجذوة هنا تحتاج إلى أياد وإلى هدف واحد وإلى أصوات تكون كلها تنويعات على صوت خضرتنا، لكن صوت الخضرة كان زاعقًا في البرية ولم يكن هناك أحد، لم يسمعه أحد، فعاد الطريق مقطوعًا وعادت الشجرة جافة، حتى الغصن جَفَّ، وها أنا لا جذور ولا جذوع ولا أغصان لي، ويبدو أنني سألتَهِمُ نفسي كي أظل فكرة قد تهبُّ عليها رياحُ ثورة فأشتمُّ فيها ريحَ نفسي لأنهضَ من جديدٍ، دون أن أعتمد على أحد، دون أن أثق في أيادي هؤلاء الرواة، سلام يا أصدقائي، قد نلتقي، أو لا نلتقي، فهل ستكون لديكم ذاكرة ساعتها؟ أم عليّ عندئذ أن أصنع منظاري الخاص وأدور به في الزوايا إلى أن ألتقط صورًا مَنْسِيَّةً لكم وسط صحراء قاحلة لألقي عليكم ضوئي ونور عيني، فأبتعثكم من جديد عندما تلتقي العيون، عندما تلتقي الرؤى، عندما تلتقي الأنفاسُ البشرية بنبض الأرض؟ وإلى أن يحدث هذا، ها أنا ألتهم نفسي قبل أن تلتهموني أو يلتهمني غيركم.

٢٠٥٨ وما بعدها، هذه فترو طويلة جدا، ولا يقبل جمال أن يمتدَّ العبثُ إلى ذلك الحين، أنا شخصية ولي نفس، لماذا لا أحتل مكاني مثلهم، إذا أحس جمال بطول العبث سيحذفني وسيحذف كل ما أقوله. أعرفه جيِّدًا، هو دكتاتور، ولا يتهاون في مثل هذه الأمور، فلأحذفْ هذا الرقم أو هذا العام، كما أنه يوجد فيه مبالغة، هو يسمعني الآن، وكيف أتكلم أنا عن رحيله المفترض في ذلك العام البعيد؟ فلأحذفْ التاريخ وأُكمل صوتي أو دوري بطريقة تليق بي كتفاحة محترَمَة، تفاحة بمائة رجل من أمثال هذه الشخصيات التي تصر على تضييع الوقت وتصر على ضياع كل شيء. سأخاطبكم بلغتكم أيها الأوغاد، ما معنى كلمة وغد؟ وهل تناسب الفترة الحالية؟ أظن أن جمال سيقول:

- يا أولاد الأفاعي...

أولاد الأفاعي، أولا الثعابين، أولا التائهين، أولاد المُشَتَّتِينَ والمُشَتِّتِينَ والمُستطْرِدين، ماذا بكم؟ كل واحد منكم يسعى لأن يصوّر نفسه حكيمًا، يصور نفسه على أنه عبقري يبحث عن الذات، يبحث عن الآخر، يبحث عن الهوية، ويستطرد في أحداثٍ ومحاولاتِ تذكُّرٍ وتأمُّلاتٍ وتعليقاتٍ، كأنَّ الروايةَ روايتُه، رواية الأصوات يا سادة ليستْ تكيَّةً، وليست عِزْبَةً من العِزَب التي تركها لكم آباؤكم رحمهم الله جميعا. كلٌّ يتكلم لبعض الوقت، قد يطول دور هذا عن دور ذاك، لكن يُفترَض أنكم إخوة، أو موجودون في نفس السياق، في نفس المكان، ما تقومون بسرده ينعكس على بعضه البعض، يؤكد بعضه البعض، ينفي بعضه البعض، لكنّي أراكم في معظم الأحيان كلٌّ يتكلم عن نفسه، يتكلم في اتجاه مختلف، والثورة السردية التي بدأ بها جمال الجزيري في قصة الأصوات صارت فوضى سردية. مرآة

يناير الواردة في قصة الأصوات تلك امتلأتْ بالشُّرُوخِ، وكلُّ شظيةٍ أو شذرةٍ أو جزءٍ يعرضُ ما يحلو له، دون التنسيق مع الأجزاء الأخرى، دون أن تتجلى صورة كاملة.

أضعتم يناير وأضعتم الشهور، وأضعتم ذلك الهواء البري، أضعتم ذلك الجبل، أضعتم ذلك المرح وتلك الأصوات البرية التي يتكامل بعضها مع بعض في القصة. تتوالى الفصول كأنَّ فصلًا واحَدا لم يمرّ من هنا، ما الذي تغيّرَ؟ ما الذي تبدّل؟ ما الذي أضافه فصلٌ إلى فصلٍ؟ أين التطور، النمو، الحركة؟ أحلتم الشهر الفضيل، الشهر المبارك، إلى سكون وتكرار وأمجاد شخصية، كلٌّ يحاول أن يُثبتَ أنه الراوي الهمام الذي لا يُشق له غبار ههههههههههههههههههههه يعني ايه "يُشق له غبار" يا بِت يا تفاحة؟ يعني ايه؟ ما دمتِ لا تعرفين معناها، استخدمي تعبيرا يليق بك. ما معنى لا يشق له غبار؟ يُشَقّ يصنع شقًّا، فتحةً. وغبار... هل كان يهرب فلا يستطيع أحد أن يلحق به؟ أم كان يتشاجر أو يحارب طوال الوقت فيحيط به الغبار من كل جانب ولا يستطيع العدوُّ أن يقترب منه أو يراه. لا يشق له غبار، فلنقلْ إن كل راوٍ يحاول أن يُثبتَ أنه البطل الهمام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يأتيه الجبن ولا الأنانية ولا الاستطراد ولا الملل من أي اتجاه! وتركتموني كأنني أنا لم أبثّ الحركة في ذلك الذي كان كتلة صخرية. هل كان كتلة صخرية لأنه كان فاقد الإحساس؟ أم أنه كان بلا وعي؟ أم أنه كان بلا نظرة للمستقبل؟ أم أنه كان فاقدًا للهوية، للإحساس بالذات، بالكرامة، طوال تلك السنين التي يقول إنه كان تائهًا فيها؟

وعندما نظرتُ إليه لأنسق معه ما اتفقنا عليه مسبقا ونبتدئ ثورتَنا للخروج من الجمود، للخروج من التحنيط، للخروج من كل هذا الجفاف، للخروج من الهواء المحروق، للخروج من الرمال التي لا تعرف الخضرة، بدأ يبحث في درب ذاتيّ، بحثا عن جذور، بحثا عن هوية، بحثا عن مغامرات سردية، بحثا عن بطولة يثبتها لنفسه في هذه الرواية التي استطالت إلى حد ما.

تركني وكأنني لم أكن أنا التفاحة، لم أكن واعدة، لم أخطط لثورة، لم أذهب به إلى البعيد، لم أدلّه على طريق الحلم، على طريق الأمل، على طريق الثورة، على طريق الأصوات المتعددة التي تقضي على الصوت الواحد الذي يُدخل الجميع في التيه والضياع!

لا أدري، أحسستُ أن كثرة مشاركاته في هذه الرواية أكثر مني ومن مشاركات أي أحد آخر، ألا تُعْتَبَرُ مشاركاته التي تجعله يتقمّص شخصيات ذلك الشخص ذي الصوت الواحد وإن كان بدرجة أقلِّ استحواذًا بشكل أو بآخر؟ فلو نظرنا إلى هذه الرواية سنجد أنه له على الأقل نصف ما فيها: هناك صوتي، صوت الصدى، صوت الراوي، وهناك مجموع الأصوات في الفصل الأول أو قصة الأصوات التي لا أعرف إن كان جمال سيضيفها للرواية أم سيحتفظ بها لينشرها في مجموعة قصصية وتظل هي الغائبة الحاضرة، كل هؤلاء لم يأخذوا مجتمعين مثل نصيبه هو كفرد، ويدور بنا في الزمان وفي المكان وكأننا ليس لدينا وقت إلا له!!

هل الرجال هكذا ثرثارون؟ ولكن هناك رواة رجالا آخرين معنا، ولا يثرثرون مثله، إذن ليس كل الرجال رواة ثرثارين. هل كانت هي من البداية رواية ثرثرة، في الفصل الأول، لا أذكر إن كان به نساء أم لا، وربما كانت طبيعة المكان في ذلك الفصل الأول تمنع ظهور النساء فيه بشكل أو بآخر، لكن هنا أيضا لا يوجد أحد،

أو الفكرة في حد ذاتها تستوجب وجود جميع الرواة من الرجال، وإن كان أي راو لا يعدم أن يُدخل شخصيةً نسائية هنا أو هناك، هناك بالفعل أكثر من شخصية داخل ما يرويه بعض الرواة، لكنها جزء من صوته، لا توجد شخصية نسائية لها صوتها المستقل الذي تتحدث من خلاله كراوية في هذه الرواية إلا أنا، وهناك ثلاثة رجال، وإذا استبعدنا الفصل الأول بأصواته التي لا تُحصى، طبعا كان شيئًا جميلًا أن يتحكم الراوي والصدى في الأصوات بحيث لا تكثر، فلو افترضنا أن كل الشخصيات التي تركتْ جمال الجزيري في السعودية وجاءتْ إلى هنا في نهاية الفصل الأول سيروي كل منها نصيبه من السرد، أظن أن الرواية ستزدحم إلى أكثر من اللازم، وسيؤدي تعدد الأصوات الزائد إلى فقدان هذه الرواية لقيمتها، ستؤدي إلى تشتيت القارئ واضطراب أو تداخل الشخصيات عليه، فكان مناسبًا تقسيمُها إلى راو وصدى وشخصيتين خارج الراوي والصدى وهما أنا وذلك الهواء المحروق أو ذلك الحجر الـ... لا أعرف كيف أسميه، المهم ذلك الرجل الذي يستحوذ على أكثر من نصف الرواية.

فليذهب إلى حيث يذهب، فليستطرد كما يشاء، فليبتعد كما يحلو له ويتركني هنا أكاد أضيع، هو من طين، وسيعود إليَّ حيًّا أو ميِّتًا، إمَّا أنْ يعودَ حيًّا لنتدبَّرَ سويًّا ما يمكننا أن نفعله ليُخرجنا من هذا التقهقر أو يعودَ إليَّ جُثَّةً مَيِّتَةً تتحلَّلُ تحت جذوري وأتشرَّبها لأصنع منها وقودًا لتفاحة الثورة، لكلِّ فواكه الثورة التي ستعود للحياة على هذه الأغصان التي حدث فيها تغير مهما كان صغيرًا، سيظهر على أغصاني، سيدب في عصارة جذوري وثماري، سأعرف كيف أحوِّلُ تأمله بعيدًا عن الاستطراد والثرثرة إلى طريق الخطوات العملية التي تعرف ما تريد.

وساعتها ستكون خبرته وصحوة ذاكرته وتشعبات تأمله وحركات عقله عوامل مُسَاعِدَةً تُثْرِي نظرتي، تثري رؤيتي، تعمّر يدي، ها هو المنظار في يدي ، وها أنا في انتظارك أيها الهواء الذي ستكون مُنْعِشًا، أيها الماء الذي ستكون راويًا، أيها الصوم الذي ستكون رافعًا...

مَجْمَعُ الرُّواةِ

المدينة المنورة

١٩ أكتوبر ٢٠١٤ - ٢٠ أغسطس ٢٠١٦

مُلْحَقٌ: قصةُ أصواتٍ

-١-

كاتب معاصر

هذه الرواية ليستْ بلسانٍ عربيٍّ مُبين، وليستْ بلسانٍ بائنٍ أو طالقٍ. هل أعجبتكَ لغة الرواية القصصية اليوم؟

[- كلمة ناقصة من الملف الصوتي الأصلي.

- ألستَ المؤلفَ؟

- وهل المؤلفُ رأسُه دفترٌ؟ ههههههه

- قلها وكفاك غلاسة. ماذا أقول بعد كل الذي لم يُقالْ؟

- يُقَالْ أم يُقَلْ؟

- هههههههههههه لا بأس]

اضحكْ

[- ألم تقل إنك لا تستطيع التقاط هذه الكلمة من الهاتف؟

- أعدتُ استماعي إليه في اليوم التالي يا أخي والتقطتُها. وقبل أن تفتح فمك، أنا لا أستطيع أن أحدد إن كانت أداة النفي في الجملة التالية "لم" أو "لن" أو "لا" هعهعهعهع حرقتُ دمَكَ ومنعتُك من التعليق هعهعهعهعه]

اضحكْ، لم، لا، لن، هههههههههههههههه نأخذ شيئًا. وقل لي كلامًا على مقاسِ إحساسي، لا على مقاسِ أحذيةِ النُّحاةِ.

توقيع

كاتب معاصر يجيز استعمال الباء مع "التالي" ولا يؤمن بالتديُّن القولي. ولا يؤمن ببذاءة التعبير.

-أ١-

أصواتُ وامضينَ

سبقٌ

أرادَ المعلِّقونَ أن يكايدوه، ذَكَرَلهم تعليقَهم قبل أن ينطقوا به.

حذاء

لبسَ حذاءَ "الحُمَاةِ". غاصَ فيه. استولى رباطُه على أحبالِه الصوتيَّةِ.

زمنٌ

قال: "هذا زمنُ الروايةِ". رويتُ له قصَّتي ورفدتُها بالأصواتِ، ثم قلتُ له: "هذا تهديدٌ لكَ. ماذا أنتَ فاعلٌ؟"

-٢-

شاهد على صحة التوقيع

جمال الجزيري

في وقته وتاريخه بعد أذان المغرب برمضان وأنا أدخن الشيشة وأرى أن لترمس الشاي عذريَّةً: لا يحتفظ بالحرارة كاملة إلا في أول استعمال، وبعدها تتسرب منه حرارته لتظل رأسي تتشوق إلى قطرة شايٍ تتفجّرُ حرارةً ونارًا ويظل لساني لا يستطيع أن يعبِّر عن الفكرة: هل استعمال النعناع مع الشاي يُفْقِدُ الترمسَ قُوَّتَه أم أن كلَّ الترامسِ تخاصمني؟

-٢أ-

أصواتُ وامضينَ

ركودٌ

كادَ يعتصرُ الحروفَ شوْقًا، منحتْه حرارةً في التعبيرِ تهيَّأتْ له. سكبَ عليه الحُمَاةُ مياهَهم الراكدةَ.

-٣-

قام بالتصوير

يحيى جمال

كنتُ ألعب بالهاتف، وجدتُ أبي يكلِّمُ نفسَه. يمسك بقلمين ويكتب على ورقتين منفصلتين جملةً هنا وجملةً هناكَ. وبين الجملتين ينظرُ إلى كوبِ الشاي بعتاب... ويربِّتُ على ترمسِ الشاي كأنه يقول له: "لا تحزنْ". وعندما التفتَ لي، غنَّى لي كلمة واحدةً تتردد في نغمة موسيقية ممتدة: "بالتَّالي بالتالي بالتالي..."

-٣أ-

أصواتُ وامضينَ

"والصُّبح إذا تنفَّس"

يتوزَّعُ بين صوتينِ. يتنفَّسُ بهذاَ كلمةً. يَكُونُ لذاكَ تعبيرًا، فتتشكَّلُ اللغةُ بأنفاسِه.

-٤-

الشخصيات (١)

"يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا". فلنفسحْ.. الآن ولن نظهر على الساحة. صغار العقول سيتساءلون.. أو سيهاجمون كثرة الشخصيات ونحن لوحدنا عشر. ولكن لا تقلقوا، سنظهر في قصة أصوات لاحقة لأي كاتب معاصر ننسجم مع لغته ولا نحس بيننا وبينه فاصلا أو حاجزا. هات يا عم جمال الشاي مادام لا يُعجبكَ هكذا! هل عندكَ أكوابٌ زيادة تُكْفِينَا؟ هعهعهعهعهعهع

-٤أ-

أصواتُ وامضينَ

أصواتٌ

وقفَ على ناصيةِ أصواتِ القصَّةِ، قائلا: "أينَ القواعدُ التي وضعتُها؟" "يدُ اللهِ مع الجماعةِ، يا وحيدَ الصوتِ".

كرنفال

- فلنحتفِ بزَخَمِ الأصواتِ.

- عليكمُ بالالتزامِ بقواعدي. لا مجال للحوارِ.

- ها هي أحبالُكَ الجَّوْفاءُ، فلنخنُقْكَ بها.

-٥-

جمال الجزيري (٢)

لم ينتهِ التوقيع بعد. نلتقي في توقيعٍ وشهادةٍ أخرى

[- كانت "لاحقا" منذ قليل. لِمَ غيَّرتَها إلى "أخرى"؟ كما أنك من المفترض أنَّكَ تُفرّغ الملفات الصوتية من على هاتفك؟ اتقوا الله. صائمونَ آخرُزمنٍ ههههههههه]

-٥أ-

أصواتُ وامضينَ

كَشْفٌ

استهوتْنا فكرة الأصواتِ. أدخَلَنَا المؤلّفُ في القصَّةِ. أضفنَا لها الفكاهةَ والسُّخريةَ والحواراتِ الكاشفةِ لبِنْيَتِها امتنانًا.

-٦-

الشخصيات (٢)

جميل هذا الشاي! [وقفةٌ للحظاتٍ كأنها للتدبُّرِ..] لكنه حارٌ جدًّا وليس به نعناع. ههههههههههههههه [يتحوَّل صوتُهم إلى ما يُشبِهُ صوتَ الأشباحِ – "هههههه هذا على أساس أنكَ تسمعُ صوتَ الأشباحِ كلَّ يومٍ هعهعهعهعهع" – أو ما يُشبِهُ صوتَ شريط كاسيت يتمُّ إبطاؤه] ألم نقل لكم إننا سنظهر في قصة أصوات لكاتب معاصر آخر؟!! [كأنَّهم يتغامزون ويتهامسون فيما بينهم] ها نحن نسفنا له القصة هههههه أفسدنا له القصة بنسف موضوع الترمس والشاي والنعناع هههههههههههههههه [ثمَّ بنبرةٍ أقرب لصوت شاعرٍ يضخِّمُ صوتَه أثناء إلقاء القصيدة] نلتقِ في قصة أخرى أيها القُرَّاااااااااءءءءءءءءءءءءءءء. آء، آه، آءءءءءءءءءءءءءء

-٦أ-

أصواتُ وامضينَ

مَرْجٌ

وعَدْنَا القرَّاءَ.. لسْنَا القرَّاءَ! أنسيتَ؟ نحنُ شخصِيَّاتٌ. ما عدتُ أميِّزُ بين الأطرافِ هُنا. بِمَ وعدْنَاهم؟ ههههههههههههه

تمزيقٌ

تعهَّدَتِ الشخصيَّةُ بالالتزامِ بالدورِ المرسومِ. مزَّقَ المؤلِّفُ الرَّسْمَ والمرسومَ، وفتحَ البابَ لشخصيَّاتٍ تهوى اللعبَ والمغامرةَ.

-٧-

جمال الجزيري (٣)

كيف كنتُ سأُدْخِلُ موضوعَ الشيشةِ وموضوع الشاي وموضوع الترمس إذا التزمتُ بوقت الكتابة وهو نهار رمضان؟ تَحَايُلٌ يا أخي.. اعتبرْه تَخْيِيلا. اعتبرْه تَخَايُلا.. اعتبرْه أي شيء. لا تقف لي على الواحدة هكذا.. [مؤكِّدًا على مخارج الحروف ومُفَخِّمًا الأصوات] لغة عربية فصيحة [وَقْفَة] ولغة عامية فصيحة [وَقْفَةٌ] هههههههههههههه

-٧أ-

أصواتُ وامضِينَ

خَ يَ لَ

خايَلَتْهُ صورُ الوقتِ. خايَلَهَا. تخَايَلَ عليها. تخيَّلَها. خَيَّلَهَا. فانسجمَ الحدثُ وانسابتِ الأصواتُ.

-٨-

أصوات لغويين:

- لا يجوز استعمال الباء قبل "التالي".

- يجوز، فاللغة العربية منفتحة على لغات أخرى.

- أنت إنسان بلا هوية.

- وأنت إنسان متحجّر.

-١٨أ-

أصواتُ وامضينَ

اتصالٌ

وجدْتُه نازِفًا. سألْتُه مفزوعًا عن حالتِه بلهجتي العامّيَةِ. نظرَ إليَّ ساخِرًا مُتَنَاسِيًا دمَه، وأبعدَ وجهَه عنّي.

بَوَاخٌ

انتحى مكانًا قصيًّا. دَفَنَ حُرُوفَ الكلماتِ في الرّمالِ، وانتظرَ أنْ تكونَ لغتُه رسولةً ونبيَّةً!

-٩-

متمرِّدٌ على سجن اللغويين اللغاة الغلاة

هعهعهعهعهعهعهع وأنتما تمزحان بالتأكيد، أليس كذلكَ؟ كلمة في استعمالٍ جَارٍ على اللسان لا يؤدي إلى لبس ولا جمود، ما المشكلة في ذلك؟ ليس الأمر محتاجا إلى تقعيدٍ أو تنظيرٍ أو أيٍّ كان. لم يستعمل القدماء حرف الباء بهذا الشكل. واستعملناه نحن، وهذا حقنا.

-٩أ-

أصواتُ وامضينَ

الكلماتُ التي في الصُّدُورِ

امتزجتِ الحروفُ بلسانِه. أحسَّ بروحِ كلمةٍ لم يسمعْها من قبل. صعدَ بها إلى وَرَقِهِ: فانشرحَ صدرُهُ.

-١٠-

قراء (١)

تعالَ يا ولد عمي. ما الذي يُجْلِسُكَ معهما؟ أنتَ هنا بيننا.

-١٠أ-

أصواتُ وامضينَ

بلا خطيئةٍ

كادا يفتكانِ بأطرافِ الحديثِ. تغنَّيْتُ لهما: "عشان شايلانا نَفْس الأرض". أمسكَ كلٌّ منهما بحَجَرٍ ورماني بهِ.

-١١-

عائد من "سوق النخاسة"

ما قلَّةُ الأدب هذه!! مياصةٌ وخروجٌ على حاكم الروايةِ. يظنون أنفسهم في ألف ليلة وليلة. بئس الظن وبئس المظنون! كيف يهديهم الله؟! أين الحكمة والموعظة؟ أين المَثَلُ؟ كيف يُسمَّى أدبٌ يخلو من الحكمةِ أدبًا؟ ماذا تفعلون يا زناديق؟ مياصة ومياسة وبالتالي؟! ماذا تفعلون الآن؟ كفى. أترمونني بتِفْلِ الشاي؟ "لا يسخر قوم من قوم عسى...". كفى. لن أكررها ثانية. إلا التجريس! هل أنا مجنون حتى تسيروا ورائي هكذا وتصفِّقونَ؟! حتى لو اعتبرتم أنفسكم أطفالا وتلعبون، لا يصحُّ. عيب. يا ولد. آسف. يا عم. أيعجبكَ هذا؟! ما لي أنا بكم أساسًا!!

اكتبوا ما تكتبونه. لا شأن لي بكم. كفي. إلا هذه. إلا آلة الزمن. سطوتُ عليها من ذلك... [يصمت فجأةً، فيتركونه ويعودون إلى شرب الشاي ومواصلة الضحك هعهعهعهعهعهع...]

-١١أ-

أصواتُ وامضينَ

اختلاسٌ

بالمرآةِ تأكَّدَ من انعدامِ صورتِه وأنَّهُ ظِلٌّ. اختلسَ النظرَ. لم يجدْ له ظِلا بالقصةِ. سبَّ كاتبَها.

تقعُّرٌ

تقعَّرتْ كلماتُه. لم يَفْهَمْ أحدٌ أسئلتَه الطالبَةَ. كادَ يموتُ جوعًا. لمْ يُسائلْ كلماتِه الهالكةَ والمُهْلِكَةَ.

خيانة

خانني لساني. أوشَكَ أن يكشفَ السِّرَّ برغم حَلالِه. تظاهرتُ بالصَّمَمِ، فعادوا لمجونِهم وتركوني قائِمًا.

إنكارٌ

استنْكَرَ سخريةَ مَنْ تتضاحَكُ أصواتُهم بقصَّتِهم ولم يستنكرْ مرآتَه الخاليةَ، فرجمَ كثرةَ الأصواتِ وابتسمَ لمرآتِه.

-١٢-

قراء (٢)

تعالَ. سنستهلك كل ما لدى جمال الجزيري من شاي وسكر ومعسل اليوم ههههههه خلِّ قصتَك تنفعكَ... أيها الكاتب الذيييييييي يبحث عن الأصوات المتعددة في نصٍّ ان ان ان ان قصييييييييييييييييييييييييرٍ ان ان ان هههههههههههههههههههههههه ضحكةٌ شريرة من القراء البُسطاء هعهعهعهعهعهعهع

-١٢أ-

أصواتُ وامضينَ

مُمَازَحَةٌ

أصواتُهم ممطوطةٌ. ضحكاتُهم خليطُ صفاءٍ وسخريةٍ. نظراتُهم لأعلى. نافذةٌ مفتوحةٌ.

شرُّالأعمالِ

نظراتُهم ماكرةٌ. ضحكاتُهم مستترةٌ. كهرباءُ هاربةٌ من المصعد. "بين السماء والأرض[١]". مراجعةٌ. انفراجٌ. هبوطٌ. شارعٌ. بقالةٌ.

---

[١] "بين السماء والأرض" فيلم مصري من إنتاج عام ١٩٥٩، قصة نجيب محفوظ، وسيناريو وحوار السيد بدير وصلاح أبو سيف، وإخراج صلاح أبو سيف.

-١٣-

جمال الجزيري (٤)

هكذا انطلقت القصة بعيدًا عن أصلها وعن كلمة "بالتالي" التي كانت منبعها، وصارت مأدبة حافلة كمائدة إفطار جماعي في مغرب رمضان.

-١٣أ-

أصواتُ وامضينَ

معاوَدَةٌ

تناسى أنَّه شخصيَّةٌ مثلُنا. أخذَ يُعلِّقُ على مسارِ القصَّةِ. اعتبرَه القرَّاءُ نشازًا واشتروا له شايًا ليعاودوا الانسجامَ.

-١٤-

قراء (٢)

كأنَّ الكهرباء كانتْ تعاقبُنا أو تذكِّرُنا أننا نسينا شيئًا. لا بد أن نشتري شايًا وسُكَّرًا ومَعَسَّلًا. لا يمكننا أن ندخل عليه بأيدينا فارغة هكذا. ها هي البقالة. لا مشكلة في الشاي والسكر. المشكلةُ في المعسل. أين نَشترى معسلًا من هذه المدينة التي طاردوا فيها باعة المعسل كما لو كانوا ساحرات شريرات. الأفضل أن ندبِّرَ مَقْلَبًا ظريفًا لجمال الجزيري وننقل مسرح الأحداث إلى مصر لسببين: كي نشتري معسلا بسهولة وكي نقيم خشبة مسرح على سطحِ شقَّتِه [ها أنا لم أستعملْ كلمة "رُوُوفْ" بدلا من السطح كي تعرفوا من يحافظ على اللغة العربية ومن يقتلها يا أولاد الأفاعي! يا وَيْلَكُم!! هعهعهعهع] خشبةُ مسرحٍ نُخْرِجُ عليها هذين اللغويين وذلك العائد من سوق النخاسة ونضعهم في مواقف ساخرة طوال جلستنا كي نمزح ونُدخل القصة في سياقات لا حصر لها. هكذا الأصواااااااات هكذا الأصواااااااااااااات هعهعهعهعهعهع

-١٤أ-

أصواتُ وامضِينَ

تصفيقٌ

نبرةٌ جادَّةٌ مُتَصَاعِدَةٌ. أصواتٌ مُفَخَّمَةٌ. هُبُوطٌ فُجَائِيٌّ نَحْوَ السُّخريةِ. ضحكاتٌ هستيريَّةٌ. تصفيقٌ حادٌّ.

-١٥-

- انتظروني يا أنذال. كيف أكون أنا صاحبُ القصة وتتركوني ها هنا وحيدًا وتسافرون إلى شقتي؟!!

- قصَّتُكَ!! هعهعهعهعهعهعهع! أي قصة يا شاطر؟! إنكَ أنت "حَيَالَّة حِتّة مُوَقِّع"! قمتَ بالتصديق على توقيع كاتبٍ معاصر!!

- أهكذااااااا؟!!! مُجَرَّد [مُرَقَّقًا صوته ومحمِّلا إيَّاه بنبرة سخرية تميل إلى التهديد والمزاح في آن] مُوَقَّعَاتي ي ي ي مُصَدِّقَاتي ي ي ي [تغلب نبرة التهديد الخفيفة] سَنَرَى.

- كما أنَّكَ لا يُمكنُكَ السفرُ أساسًا. فبعدما تهبط الطائرة مباشرة، قد يسحبونك للسجن.

- وماذا ارتكبتُ كي أدخلَ السجنَ [بنبرة مفعمة بالسخرية والمرارة] يا فالح يا أذكي إخوتِكَ؟!!!

- هعهعهعهع [بنبرة ساخرة جدًّا تتقمَّصُ في الوقت ذاته صوت قاضٍ هزليٍّ وصوتَ شخصيَّة في فيلم يصوِّر جلسةَ هجاءٍ في عصر جاهلي] ألا ترى أنك أقمتَ مظاهرةً في قصةٍ كهذه بدون ترخيص؟

- هعهعهعهع عندَ الكتابة أنا مجرَّدُ مُوَقِّعْ ع ع وعند الجزاءِ والعقابِ [يهزُّ رأسه ساخرًا] أنا الذي كتبتُ كل هذا [تتسارع نبرة كلامه] وأنا الذي أقمتُ مُظَاهَرَةً وأنا الذي دمَّرتُ بِنْيَةَ القصة وأنا الذي ثُرتُ على كل شيء، على اللغة، على التركيب، عليكم أنتم شخصيًّا هعهعهع [بنبرة مستجوِبَةٍ ومازحةٍ في نفس الوقت] غريبٌ أمرُكم أيها القراء!!! هه هه هه

-١١٥أ-

أصواتُ وامضينَ

معاصرون

- أين الكاتب المعاصر؟

- .....

- أين هو؟

- أتوارى منك خَجَلا.

- لِمَ؟

- أنتم الأصواتُ والكتَّابُ يا سيِّدات ويا سادة.

كاتبٌ معاصرٌ

تنبَّهتُ لعبقريَّةِ أصواتِهم. أفسحتُ لهم ساحةَ القصَّة. أخذتُ أُنْصِتُ لنبضِهم ونبضي. تدفَّقَ النَّبْضُ؛ فعَمُرَتِ قصَّتِي.

٤-١٢ يوليو ٢٠١٤

جمال الجزيري في سطور

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد (جمال الجزيري) في ٢ أغسطس ١٩٧٣ بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. قاص وشاعر وروائي ومترجم وناقد ودكتور جامعي مصري. بدأ مشواره الأدبي في عام ١٩٩١. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج ١٩٩٥. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة ١٩٩٨عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر١٩٣٦ – ١٩٦١"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام ٢٠٠٢ عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف ١٩٦٧ – ١٩٨٧". يعمل منذ عام ١٩٩٩ بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. بدأ نشر دراساته النقدية في عام ١٩٩٩ بدراسة بعنوان "مشروعية دراسة عتبات النص"، وبدأ نشر كتبه الأدبية في عام ٢٠٠١ بمجموعته القصصية فتافيت الصورة، وقبلها بدأ نشر كتبه المترجمة عن اللغة الإنجليزية في المشروع القومي للترجمة (المجلس الأعلى للثقافة، مصر) ثم في المركز القومي للترجمة، ومنذ تلك السنوات توالت أعماله في فروع القصة والترجمة والشعر والنقد الأدبي والرواية والمسرح، بالإضافة إلى كتبه ودراساته باللغة الإنجليزية. وحصل على عدة جوائز في القصة القصيرة والشعر والنقد الأدبي. نشر حوالي ٥٠ كتابا ورقيا ما بين القصة والشعر والرواية والنقد الأدبي والترجمة. ونشر حوالي ٩٠ كتابا إلكترونيا ما بين القصة والشعر والهايكو والهايبون والرواية والمسرح والنقد الأدبي والترجمة.

وهو عضو هيئة تحرير مجلة European Scientific Journal التي تصدر في البرتغال، كما أنه رئيس تحرير مجلة International Journal of English Literature and Culture التي تصدرفي نيجيريا.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

العمر: ٤٦ سنة

الجنسية: مصري

المهنة: دكتور جامعي، تخصص الأدب الإنجليزي، كلية الآداب بالسويس، جامعة السويس، وحاليا: أستاذ مشارك الأدب الإنجليزي في قسم اللغات والترجمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة.

رقم الهاتف: ٠٠٩٦٦٠٥٣٢١٠١٥٤٤ (السعودية) (واتساب واتصال). ٠١٢٢١٠٩٠٩٥٥ (مصر: اتصال) و٠١١١٦٤٩٠٩٥١ (مصر: واتساب)

رابط صفحة الفيسبوك:

https://www.facebook.com/gamal.elgezeery.73

البريد الإلكتروني: elgezeery@gmail.com

جـوائـز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي ١٩٩٥

* المركز الثالث في القصة القصيرة، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٦ – ١٩٩٧ عن مجموعة بعنوان أساطير.

* المركز الثالث في النقد الأدبي، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٩ – ٢٠٠٠، عن دراسة بعنوان الرؤية الحضارية للإبداع عند شكري عياد.

* جائزة ناجي نعمان الأدبية لعام ٢٠٠٩ (جوائز الإبداع) عن ديوان شعر بعنوان وطن بطعم الأسئلة.

* تنويه لجنة التحكيم في الدورة السادسة لجائزة دبي الثقافية للإبداع (٢٠٠٨-٢٠٠٩) بمجموعة قصصية له بعنوان وجوه الطمي.

* جائزة عبد الغفار مكاوي للقصة القصيرة ضمن جوائز اتحاد الكتاب (مصر) ٢٠١٠، عن المجموعة القصصية غلق المعابر.

* وسام التميُّز من الدرجة الأولى في القصة القصيرة في العالم العربي لعام ٢٠١٠ عن المجلس العالمي للصحافة عن قصة بعنوان "الرئيس الجديد".

* جائزة الدكتور زكريا الملكاوي في الشعر عن قصيدة بعنوان "امتلاء"، أبريل ٢٠١١.

* جائزة منف للرواية العربية الإلكترونية عن رواية بعنوان "بعد الطوفان"، ٢٠١٧.

* جائزة دار السعيد للنشر والتوزيع، فرع الرواية، عن رواية بعنوان "طريق الخروج"، ٢٠١٩.

إصدارات

١- أصدر إحدى عشرة مجموعة قصصية: فتافيت الصورة (٢٠٠١)، بدايات قلقة (٢٠٠٤)، نقوش على صفحة النهر (٢٠٠٩)، غلق المعابر (٢٠١٠)، رائحة مأتم (٢٠١٠)، اشتعال الأسئلة الخضراء (٢٠١١)، الطريق إلى الميدان (٢٠١١)، كاميرا ونظرة عين (٢٠١٧)، صورة واحدة تكفي (٢٠١٨)، اضحكْ يا ولدي (٢٠١٨)، عيون جريحة (٢٠١٨).

٢- كما أصدر أحد عشر ديوانا شعريًّا: لا تنتظر أحدًا يا سيد القصيد (٢٠٠٩)، حفل توقيع (٢٠١٠)، ونظلُّ على الإشراق (٢٠١٠)، أصوات نهر قديم (٢٠١٠)، خارطة المطر (٢٠١٠)، أسفار سيدة النهر (٢٠١١)، بنت النهار (٢٠١١)، ميدان المرايا (٢٠١١)، نظراتُ روحي (٢٠١٨)، جذور إشراق (٢٠١٨).

٣- أصدر مجموعة روايات قصيرة: شوط أول: ست روايات قصيرة (٢٠١٨).

٤- أصدر مجموعة نصوص هايبون: طواحين الكلام (٢٠١٨).

٥- أصدر عدة كتب في النقد الأدبي: الحوار مع النص: جماعة بدايات القرن نموذجًا (٢٠٠٢)، الإبداع والحضارة عند شكري عيَّاد (٢٠١٠)، وظائف المكان وجماليّاته في رواية فساد الأمكنة لصبري موسى (قيد الطبع في هيئة الكتاب، ٢٠١٩). كما أصدر عدة كتب إلكترونية في النقد الأدبي: الأدب والثورة: دراسة في

رواية قُشتمر لنجيب محفوظ (٢٠١٥)، قراءة الثورة بأثر رجعي: دراسة في قصائد خديجة للسمّاح عبد الله (٢٠١٥)، الزمن ودلالاته في شعر السمّاح عبد الله (٢٠١٥)، تجلّيات الزمن في ديوان مديح العالية للسمّاح عبد الله: دراسة ومعجم (٢٠١٥)، مقدمة نقدية في قصيدة الهايكو (٢٠١٦).

٦- وأصدر كتابا إلكترونيا عن العامية المصرية: كلمات وتعبيرات مصرية: مقالات ومعجم مصغَّر في اللغة والثقافة (٢٠١٦).

٧- وأصدر نحو عشرين كتابا مترجما من الإنجليزية إلى العربية ومعظمها صادر عن المركز القومي للترجمة: أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (جزءان) (٢٠٠١)، أقدّم لك الذهن والمخ (٢٠٠١)، سحر مصر للرحالة الإنجليز (٢٠٠٢)، أقدّم لك كافكا (٢٠٠٣)، أقدم لك تروتسكي (٢٠٠٣)، أقدم لك فرويد (٢٠٠٣)، أقدّم لك بارت (٢٠٠٣)، اليهودية أيديولوجية قاتلة: التاريخ اليهودي وسطوة ثلاث آلاف سنة (٢٠٠٣)، أقدّم لك علم العلامات (٢٠٠٥)، أقدم لك الحركة النسوية (٢٠٠٥)، أقدّم لك ما بعد الحركة النسوية (٢٠٠٥)، أقدم لك القتل الجماعي (المحرقة) (٢٠٠٥)، أقدّم لك التحليل النفسي (٢٠٠٥)، أقدم لك النظرية النقدية (٢٠٠٥)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. الجزء الرابع: القرن الثامن عشر. المجلد الأول (٢٠٠٦)، رواية السيد (٢٠٠٦)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. الجزء الثامن: من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية (٢٠٠٦)، معجم دراسات الترجمة (٢٠٠٧)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: المجلد الثالث: عصر

النهضة (٢٠١٥)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: المجلد الرابع: القرن الثامن عشر: الجزء الثاني (٢٠٠٩).

٨- كما قام بمراجعة ثلاثة كتب في الترجمة صادرة عن المركز القومي للترجمة: فندق الأرق (ترجمة أحمد شافعي: ٢٠٠٤)، وجه أمريكا الأسود: وجه أمريكا الجميل (ترجمة أحمد شافعي: ٢٠٠٥)، رواية السيد لثريا أنطونيوس (ترجمة جمال الجزيري ومحمود حسب النبي: ٢٠٠٦).

٩- وأصدر ثلاثة كتب بالإنجليزية في دور نشر ألمانية وهي:

1- Elgezeery, Gamal. *Narrative Aspects of Roger McGough's Poetry 1967-1987: A Study of the Intersection of Poetry with Fiction*. Germany: VDM Verlag Dr. Müller (2011)

2- Elgezeery, Gamal. *Human Objectification in Carol Ann Duffy's The World's Wife*. Saarbrucken (Germany): Lap Lambert Academic Publishing, 2014.

3- Elgezeery, Gamal. *Little Red Riding Hood: From Orality to Carol Ann Duffy*. Saarbrucken (Germany): Lap Lambert Academic Publishing, 2014.

١٠- كما نشر عشرات المقالات والدراسات بالعربية والإنجليزية، ونشر عشرات الكتب الإلكترونية.

الفهرس

الراوي ____ ٥
الهواء المحروق ____ ١٣
التفاحة ____ ٣٢
الراوي ____ ٤٢
الهواء المحروق ____ ٥٨
التفاحة ____ ٦٣
الصدى ____ ٦٨
الهواء المحروق ____ ٧٩
الراوي ____ ٩٢
الهواء المحروق ____ ٩٧
الراوي ____ ١١٢
الهواء المحروق ____ ١٢١
التفاحة ____ ١٣١
مُلْحَقٌ: قصةُ أصواتٍ ____ ١٣٩
جمال الجزيري في سطور ____ ١٥٧
جوائز ____ ١٥٩
إصدارات ____ ١٦٠
الفهرس ____ ١٦٣